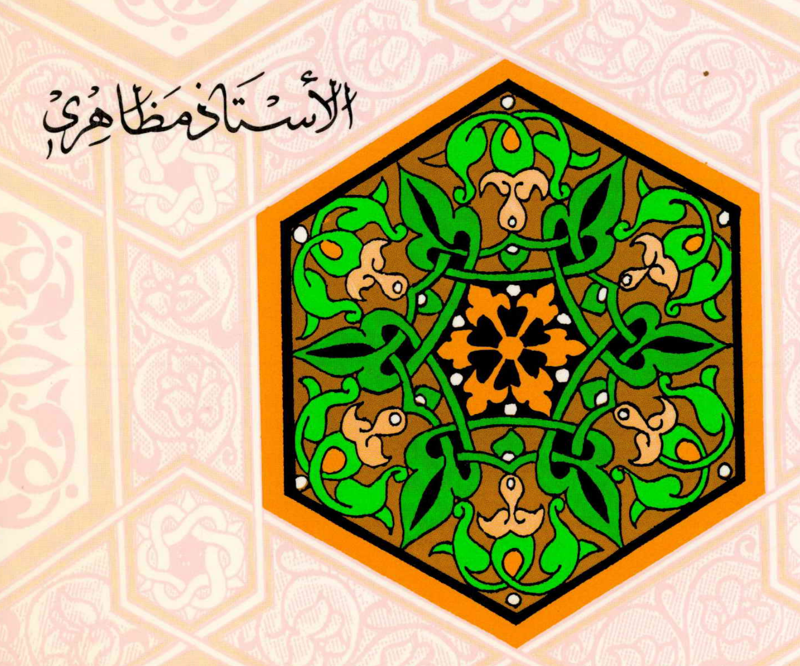




دار ومكتبة الرسول الأكرم (ص)


المعاد في القرآن

الأستاذ مظاهري



أو

مصير الانسان بعد الموت

ترجمة وتحقيق

لجنة الهدى

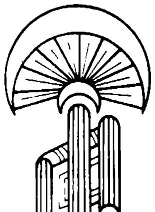
دار ومكتبة الرسول الاكرم (ص)

طباعة نشر توزيع

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ - ١٩٩١م





الدرس الأول

المقدمة

تمهيد

لا جرم أن بحث المعاد يثير في النفس الانسانية الاهتمام والاستئناس معاً ، وفوق ذلك هو من البحوث الواجب على كل فرد مسلم أن يتعلمها .

سوف لن ندخل في تعقيدات المصطلحات الفلسفية ، بل نسعى إلىٰ معالجة قضايا البحث بما يتلاءم ويتناسب مع المستوىٰ الفكري للأخوة الأعزاء المؤمنين. لذلك سنتابع بحثنا استناداً للآيات القرآنية الشريفة فقط . وعند الحاجة سنستعين بروايات أهل بيت العصمة والطهارة (ع) ، متحاشين دائماً الخوض في البحث الفلسفي .

لكن ينبغي الالتفات إلىٰ أنّ البحث في المعاد وفي مصير الانسان بعد الموت يُعَدُّ أمراً صعباً ومتشابكاً ، لا يمكن الخروج من عهدته وإيفائه حقه إلاّ في ظل دراسة الآيات التي نستند إليها ومتابعة كتب التفسير .

وسنستمر حتى النهاية بعونه تعالى وبتوفيق بقية الله (عج) في عرض البحث مضغوطاً ومركزاً ليتناسب مع متطلبات وظروف الأخوة المؤمنين وبالخصوص أولئك الأعزاء المرابطين .

الإنسان مركب من جزئين ومؤلف من بعدين .

ألف : البعد المعنوي وهو الروح .

ب : البعد المادي وهو الجسم .

والغرائز المادية تتعلق بالجسم أو البعد المادي للإنسان . أما الميول

النفسيـة فهي صادرة عن الـروح الإنسانيـة ، والإنسان يعيش صـراعـاً داخليـاً مستمـراً بين هذين البعـدين ، صراعـاً لشـدتـه أطلق عليـه النبي (ص) اسم « الجهاد الأكبر » فقد جاء في الحديث الشريف:

« إنّ الله تعالىٰ خلق الملائكـة وركَّبَ فيهم العقل، وخلق البهـائم وركّب فيهم الشهوة، وخلق بني آدم وركّب فيهم العقل والشهوة، فمن غلب عقله على شهـوته فهـو أعلىٰ من المـلائكـة ومن غلب شهوته علىٰ عقله فهو أدنىٰ من البهائم »[1] .

فالملائكة وجود نوارني خالٍ من الميول والرغبات النفسية يحيون بالعشق الإلهي ، خلافاً للحيوانات التي لا حظّ لها من العقل والعلم والمعرفة ، وكل همها الأكل والنوم وإشباع شهواتها . أما الإنسان فقد أنشأه اللطف الإلهي مركباً من قوّتين هما ، العقـل والشهوة . حيث يستـطيع بقـوة العقل أن يسمـو علىٰ الملائكة ، إلّا أنه ينحدر إلىٰ ما دون حدّ البهيمة باتباع الشهوات . إذن فالوجود الإنساني هو ساحة صراع بين هاتين القوتين ، وميدان « الجهاد الأكبر » والمقام الشامخ عند الله تعالىٰ ومجالسة الأنبياء بانتظار الإنسان الذي استطاع أن ينتصر في جهاده الأكبر علىٰ قواه الشهوانية وأن يخضعها لإرادته .

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾[2] .

﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾[3] .

---

(١) حـديث شريـف ورد في المجلد (١١) من كتـاب الوسـائل صفحـة ١٦٤ بقليـل من التفاوت .

(٢) سورة النساء ، الآية : ٦٩ .

(٣) سورة الفجر ، الآيات : ٢٧ ـ ٣٠ .

« يستطيع ابن آدم الوصول إلىٰ المقام الذي لا يرىٰ
فيه غير الله ، فأنظركم وسيع هو مقام الإنسان
فلو سلخ البهيمية من طبعه، لخلد الدهر حياً
بحقيقة الآدمية » .

« لقد شاهدتُ تحليق الطيور ، لكن تخلص من قيود
الشهوة، فسترى كيف تحلّق الآدمية » .

وحين ينتصر الإنسان في عملية الجهاد الأكبر فإنه يصبح من السائرين والمحلّقين إلىٰ الله تعالىٰ . وهنا يعجز القلم واللسان عن وصف لذة هذا التحليق الإلهي والمعنوي ، ولا يمكن لأحد أن يتذوّق لذّة هذا التحليق غير المحلّقين أنفسهم .

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1]

أمّا إذا انهزم الإنسان في الجبهة الداخلية ، وسقط صريع بعده المادي وشهوة حب الرئاسة وصنم المال واتباع الهوىٰ، فإنه سيهوىٰ إلىٰ حد أدنىٰ من الحيوان .

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾[2]

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[3]

يعني إن شر الدواب هي التي هُزمت قواها العقلية أمام شهواتها .

طريق النصر في الجهاد الأكبر :

تحتاج الروح الإنسانية إلى جملة من العوامل المساعدة ليتغلب البعد المعنوي على المادي وينتصر الجوهر الملكوتي علىٰ الناسوتي .

---

(١) سورة السجدة ، الآية : ١٧ .
(٢) سورة الأعراف ، الآية : ١٧٩ .
(٣) سورة الأنفال ، الآية : ٢٢ .

بهذا الخصوص توالت النظريات الكثيرة الصادرة عن علماء الأخلاق والسير والسلوك ، وتزاحمت عقائد الفلاسفة قبل الإسلام ، وبعده ، وتعددت آراء علماء النفس في إطار موضوعهم العلمي ، إلّا أنهم اختلفوا في تحديد عوامل النصر في الجبهة الداخلية للإنسان . فعدّ البعض « العقل » العامل الأساس للإنتصار في الجبهة الداخلية . بينما أعطىٰ آخرون هذا الدور للعلم ، فقد اعتقد أفلاطون وتلامذته بأن مقدرة الإنسان علىٰ تحقيق النصر الداخلي تتعزز كلّما ازداد علمه .

وهنالك من آمن بالوجدان الأخلاقي أو النفس اللوّامة ـ حسب التعبير القرآني ـ عاملاً أساسياً للنصر في الجهاد الأكبر ، فهم يقولون أنه لو استيقظ الوجدان الأخلاقي للإنسان لتمكن من السيطرة على النفس الأمّارة .

والمجموعة الرابعة ترىٰ أن العامل المؤثر هو التربية السليمة ، فلو توفر للإنسان تربية صحيحة لاستطاع بها التغلب علىٰ قواه المادية في عملية الجهاد الأكبر.

والمجموعة الخامسة تعتقد بأن النصر في هذه الحرب لا يكون إلّا بواسطة القانون .

أما المجموعة السادسة فهي تتصور أن عامل النصر في الرقابة الاجتماعية[1] .

ولا نريد الدخولَ أكثر في هذا البحث الطويل جداً ، ونكتفي بالإشارة إلى أنّ الإسلام يرىٰ في العوامل المذكورة آنفاً دوراً في السيطرة على الفرد والمجتمع ، إلّا أنه لا يعتبر أياً منها كافياً لتهذيب النفوس ، ولا يعول عليها في المواقف الحساسة وفي ساعات الشدّة . وعلىٰ ضوء ذلك لا يمكن لهذه العوامل أن توصل الإنسان إلىٰ النصر إلّا في الأجواء العادية ، أمّا في غيرها فهي قاصرة .

لتوضيح هذه النقطة ، نشير إلىٰ أنّ للميول والغرائز الإنسانية حالتان :

---

(١) الرقابة الاجتماعية نفس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ألف : الحالة العادية والطبيعية ، حيث يمكن السيطرة علىٰ الجوع والعطش الطبيعيين . كما يمكن في الأحوال الطبيعية والعادية الاستفادة من العوامل المذكورة لتعديل حب الرئاسة ، والتعلق بالدنيا والغريزة الجنسية ، وعبادة المال ،

ب : الحالة الضاغطة ، حيث تغطي غرائز الإنسان متجاوزة حدّها الطبيعي ، وفي هذه الحالة لا تقوىٰ العوامل المذكورة علىٰ حماية الإنسان من نوازعه الشريرة والمنحرفة .

العقل في الإسلام :

أعطىٰ الإسلام للعوامل المذكورة دوراً مؤثراً فقد جاء في القرآن الكريم عن العقل :

﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾[1]

فالآية المباركة تبشّر أولي الألباب بالسعادة[2] .

العلم في الإسلام :

كذلك أظهر الإسلام عناية متميزة بالعلم وطلبه وأعطاها الأهمية الخاصة بحيث لم نجد مثيلاً له في أية عقيدة أو مبدأ آخر .

﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[3]

---

(١) سورة الزمر ، الآيتان : ١٧ ـ ١٨ .

(٢) المقصود من العقل هو ما جاء في جواب الإمام الصادق (ع) في جوابه عن سؤال : ما العقل ، فقال (ع) : ما عُبد به الرحمن واكتسب به الجنان ، قال فما الذي كان في معاوية . فقال (ع): تلك النكراء تلك الشيطنة وهي شبيهة العقل وليست بالعقل، الكافي مجلد ١ ص ١١ .

(٣) سورة المجادلة ، الآية : ١١ .

والإسلام كما تعلمون لا يقيم التفاضل الإنساني على أساس الحسب والنسب والثروة والمناصب الدنيوية ، وقد ضرب عرض الحائط كل الامتيازات التي كانت موجودة أيام الجاهلية . لكنّه جعل العلم سبباً للتفاضل ، وأعطىٰ العلماء العاملين درجات عالية وأوجب احترامهم علىٰ الناس . وقد نُقل عن أحد العلماء الكبار قوله: « العلم دليل المعرفة » فالعلم دليل معرفة الله تعالىٰ ، يعني أن للعلم خاصية الهداية .

الوجدان الأخلاقي في الإسلام :

في القرآن الكريم جاء ذكر الوجدان الأخلاقي في موضع واحد مع ذكر يوم القيامة ، وقد أقسم الباري تعالىٰ بالنفس اللوّامة وهي التعبير الآخر للوجدان الأخلاقي .

﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾[1]

﴿ . . . لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾[2]

كذلك الوجدان الأخلاقي، أو النفس اللوّامة حسب تعبير القرآن الشريف ، لا يرضىٰ بالمعصية والتثاقل عن الطاعة . من هنا كان الوجدان الأخلاقي حارساً أميناً وعنصراً مؤثراً . فهو يعظ وينصح قبل ارتكاب المعصية ، وحين الوقوع في الخطيئة يُثني الخاطىء عن الاستمرار بها ، وبعد ارتكاب الذنب يلوم الإنسان على فعله ، ولهذا سُمّي « الوجدان » بالنفس اللوّامة .

وللوجدان الأخلاقي بُعد آخر هو حث الإنسان وترغيبه على فعل الخير وإدامته ، فهو يُهيىء الأرضية الصالحة للأعمال الحسنة . وعلىٰ ضوء ذلك تتضح أهمية هذا العامل ، كما أنّ القَسَمْ القرآني به في :

---

(١) سورة القيامة ، الآيتان : ١ـ ٢ .
(٢) سورة البقرة ، الآية : ٤٨ .

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾

يعكس دور هذا العامل في عملية الجهاد الأكبر .

العامل التربوي في الإسلام:

كذلك أعطىٰ الإسلام للعامل التربوي أهمية كبيرة فقد جاء في سورة التحريم :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ . . . ﴾[1]

فالآية الشريفة تنظر إلى التربية الإلٰهية كالواقي والمخلص للنفس والأهل من النار التي وقودها نفس الداخلين فيها . وفي مكان آخر قال تعالىٰ :

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾[2]

ففي يوم القيامة هناك من يخسرون أنفسهم وأهليهم لأنهم أوردوها موارد الهلكة والشقاء ، ولم يواظبوا علىٰ تربية أنفسهم وأهليهم . ومن هاتين الآيتين الشريفتين تتضح أهمية العامل التربوي .

الإسلام والقانون :

للإسلام مجموعة متكاملة من القوانين في كافة المجالات الحقوقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعائلية والعبادية وغيرها . وقد وردت التأكيدات الكثيرة في القرآن الكريم على رعاية هذه القوانين معتبرة تعدّيها ظلماً .

﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[3]

---

(١) سورة التحريم ، الآية : ٦ .

(٢) سورة الزمر ، الآية : ١٥ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٢٩ .

والله تعالىٰ لا يهدي الظالمين ويحرمهم من رحمته وعنايته ولطفه ، فالإسلام يؤيد العامل القانوني أيضاً .

الإسلام والرقابة الاجتماعية :

الرقابة الاجتماعية هي العنوان الآخر للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أحد فروع الدين الإسلامي الحنيف .

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[1]

فمصداقية المجتمع الإسلامي الواقعية تتحقق حين يُجسِّد أفراده فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تجسيداً عملياً .

وفي آية كريمة أخرىٰ قال تعالى :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ . . . ﴾[2] .

وعلى ضوء هذا تتضح لنا أهمية الرقابة الاجتماعية أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ضيق مساحة عمل العوامل الستة :

أشرنا إلىٰ إمكانية السيطرة على النفس الأمّارة في الأحوال الطبيعية والعادية بواسطة العقل والعلم والوجدان الأخلاقي والقانون والرقابة الاجتماعية ، وقلنا أنّ الإسلام أعطىٰ أهمية كبيرة لهذه العوامل الستة لدرجة أن علماء الإسلام أصدروا بخصوص كل واحد منها العديد من الكتب القيّمة ، وقاموا بتحقيقات مُطَولة ومفيدة فيها . لكنه كما ذكرنا أنّ ساحة عمل هذه العوامل محصورة بالحالات الطبيعية ، أمّا عندما يشتد الصراع الداخلي وتتمرد الغرائز الحيوانية

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١١٠ . (٢) سورة التوبة ، الآية : ٧١ .

والنوازع المنحرفة ، فلا يمكن لأي عامل ، بل لكل العوامل ، مقاومة الجنود الشيطانية للنفس الأمّارة ، فلا بدَّ من عامل آخر يستطيع حماية الإنسان من طغيان النفس الأمّارة وتمردها . فيحصل أن يقتل الإنسان ابنه نتيجة تعرضه لموجة غضب عنيفة أو حالة جوع ضاغطة . فكيف إذن تكبح العوامل المذكورة هكذا إنسان طغىٰ

العلم قاصر :

ألسنا في عصر العلم ؟ فلماذا تسقط الصواريخ على رؤوس الآمنين ؟ أليس التفجير النووي نتيجة للتطور العلمي ؟ فلماذا مُسخت القيم الإنسانية رغم هذا التطور ؟ إنّ ثمرة التطور العلمي كانت صناعة قنبلة ، لتُلقىٰ على الآمنين في هيروشيما وناكازاكي وتحصد أرواح ما يقارب المائة ألف بريء !!

هنا لا بد أن نقول لأفلاطون رغم أنّ العلم استطاع خلق الذرة إلّا أنه أخفق في إصلاح نفس الإنسان الشريرة ، والحؤول دون طغيانها ، بل ساعد الإنسان علىٰ توسيع ظلمه .

عجز التربية والقانون :

تعتبر التربية والقانون اليوم من السمات المهمة لما يطلق عليه بالعالم المتحضر ، حتىٰ أنهم سنّوا قوانين تحمي الحيوانات . لكن في هذا العالم الذي تؤمن القوانين لرعاية الحيوانات والمحافظة عليها، تتساقط القذائف علىٰ الشعوب المظلومة والمسلمة في أفغانستان ولبنان وإيران وعلىٰ سائر المستضعفين ، ويقوم المستكبرون بنهب ثروات الشعوب واستعبادها . فيظهر أنّ التربية والقانون موجودان ، ولكن لا يمكن عدّهما من العوامل الرادعة للظلم والنهب، فهذان العاملان كباقي العوامل الأخرىٰ يمكنها العمل في مساحة معيّنة ، وحين تتجاوز النوازع الشريرة حدود هذه المساحة ينعدم تأثير تلك العوامل .

المعاد : العامل الأساسي في السيطرة على الإنسان :

السبب في قصور العوامل المذكورة وضيق مساحة عماها يكمن في طغيان غريزة حب الدنيا . فهي رأس كل خطيئة ، وحين تتمرد هذه الشهوة تصبح كل

قساوة أمراً ممكناً . والعامل الوحيد الذي يمكنه السيطرة على هذه الغريزة دون العوامل الآنفة ، هو الاعتقاد بالمبدأ والمعاد .

فاليقين بعالم البرزخ والحساب والكتاب والجنة والنار هو العامل الأساس في السيطرة على الإنسان وهدايته .

الدرس الثاني

سبب التكذيب بالمعاد

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[1]

السائل في مقام التكذيب بيوم القيامة والحساب والكتاب ، لأنه يريد أن يفعل ما يشاء دون أي قيد .

الآيات الأولىٰ من سورة القيامة المباركة تشير بصورة إجمالية إلىٰ أن الاعتقاد بالمعاد والحساب . عامل أساسي في السيطرة علىٰ الغرائز الإنسانية والأهواء النفسية .

كما نقرأ في سورة المطففين أن الاكتفاء بظن البعث وحسبانه من شأنه أن يشكل رادعاً عن اقتراف الذنب، ومن الأولىٰ أن يكون اليقين بالبعث ليوم عظيم يؤاخذ الله فيه الناس بما كسبوا عاملاً أساسياً في السيطرة على الأهواء النفسية .

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[2]

---

(١) سورة القيامة ، الآيات : ١ ـ ٦ .
(٢) سورة المطففين ، الآيات : ١ ـ ٥ .

ليس الكاسب هو المصداق الوحيد للآية المباركة ، فالموظف المتماهل في وظيفته والجندي المتثاقل في تأدية واجبه ، وكل الأشخاص الذين لا يراعون لغيرهم من الحق مثل ما يراعونه لأنفسهم أو يراعون الحق لأنفسهم ولا يراعونه لغيرهم، كل هؤلاء يمثلون مصداقاً لهذا الحكم الكلّي . نذكر هنا نموذجين لاحتضار الإنسان لنبيّن ألم الموت وشدته ووحشته .

النموذج الأول :

جاء في كتاب « لقاء الله » أن رجلاً أخبر سلمان حين وفاته أنه قال: يا سلمان ، القرضُ بالمقاريض والنشر بالمناشير أسهل وأهون عليّ من غصّةٍ واحدة من غصص الموت، وكنت أنا من أهل الخير والسعادة فإذ بشخص يأتي عظيم الجثة مهيب المنظر ما بين السماء والأرض ، فأشار إلى عيني ولساني وسمعي، فعُميتُ وخُرست وبُكمت . . . إلىٰ أن قال: فقال ملك الموت أبشر إنك من أهل الخير ، ودنىٰ مني وجذب روحي ، وكانت كلّ جذبة مكان كلّ شدة تنزل من السماء إلىٰ الأرض ، وهكذا كان يجذب حتىٰ بلغ إلىٰ صدري ، فإذا جذب جذبة واحدة شديدة بحيث لو وقعت علىٰ الجبال لذابت من شدّتها فأخرج روحي . . . .

النموذج الثانيّ :

وهو ما روي عن المفيد عليه الرحمة باسناده عن الإمام الصادق (ع) وحاصلهُ، أنه إذا أراد الله عزّ وجلّ قبض روح الفاجر أمر ملكُ الموت أنْ إذهبْ بأعوانك إلى عدوّي الذي أنعمتُ عليه بصنوف نعمي، ودعوتُه إلىٰ دار السلام فلم يُجِبْ دعوتي ، وكفر نعمتي ، وخذ بروحه الخبيثة وألقها في جهنّم ، فيجيء ملك الموت إليه ووجهه منقبض ، مُهيب مُظلم مثل الليل المظلم ونفسه مثل لهيب النار وعيناه مثل البرق الخاطف ، وصوته مثل الرعد القاصف ، رأسه في السماء ورجلاه في الهواء، أحداهما في المشرق والأخرىٰ بالمغرب . بيده سُفود له شُعَبٌ كثيرة مع خمسمائة من الملائكة وبيد كل واحد منهم سوط مشتعل وحلس سود، وحمرة من نار جهنّم ، ومنهم «سحقطائيل» من خزّان جهنّم ، فيدنو منه فيسقيه شربة من شراب جهنّم . فإذا رأى هذا الفاجر هذا التفصيل يُحار لبّه ويستغيث قائلاً : ردّوني إلىٰ الدنيا . فيُجاب :

﴿ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا . . . ﴾[1] .

فيضربُه بالسفود الذي بيده ويجذب به روحه من طرف رجليه حتىٰ إذا بلغت روحه حلقومه يضربونه بالأسواط ويقولون له : ـ

﴿ . . . أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾[2]

وإذا أخرجوا روحه يضعون بدنه في مطرقة ويكسّرونه من أطراف أصابعه إلى جدقيته فيخرج منه ريحٌ نتنة يتألم منه أهل السماوت ، فيَلعنه الله وجميع أهل السموات .

السبب في عدم الامتثال للأوامر الإلهية :

يُعدُّ التفكر في مثل هذه الروايات دواءً مؤثراً يفي الإنسان من طغيان أهوائه النفسية . فمجرد احتمال وقوع هذه الحوادث يردع الإنسان عن اتباع شهواته .

هنا يُطرح السؤال القائل : لماذا ترتكب المعاصي والذنوب ولا يُمتثل لأمر الباري تعالىٰ ؟ الجواب واضحٌ وهو انعدام اليقين بيوم القيامة ، فاليقين والعلم شيئان ، فالعلم يعني (الإحساس الخارجي بالشيء) ، أما اليقين فهو حصول الاطمئنان القلبي بالشيء .

أقسام العلم :

ألف : العلوم العقلية ، مثل ، التفكرات العقلية وإقامة البراهين الفلسفية . وسنستفيد من هذا القسم في إثباتنا للمعاد . ورغم ضرورة الاستدلالات العقلية في إثبات المعاد إلّا أنها غير مؤثرة في سلوك الإنسان إلى الله ، كما أنّ العلم وحده لا يُمثل ضابطاً للإنسان .

ب : العلوم القلبية : وتُسمىٰ بالمعرفة . هذه العلوم من إشراقات الأنوار الإلهية ، فسُميت باليقين . واليقين مشاهدة بالقلب لا بالعين .

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية : ١٠٠ .   (٢) سورة الانعام ، الآية : ٩٣ .

اليقين في كلام الإمام زين العابدين (ع) :

نقرأ في دعاء أبي حمزة الثمالي هذه الفقرة :

« اللهم إني أسألك ايماناً تباشر به قلبي ويقيناً صادقاً حتى أعلم أنه لن يصيبني إلّا ما كتبت لي ، ورضّني من العيش بما قسمت لي يا أرحم الراحمين »[1] .

فالإمام السجّاد (ع) يطلب من الله تعالىٰ إيماناً يقينياً وقلبياً لا عقلياً . لأن التصديق القلبي هو المحرك للإنسان وليس العلم بالمعاد .

الغفلة عن الموت :

الناس غافلون عن أول ليلة في القبر وعن القيامة والصف والمحشر ولا ينتبهون إلّا في القبر :

« الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا »[2] .

وجاء في القرآن الكريم :

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[3]

لو اتصف الإنسان بالدرجة الضعيفة من اليقين بالمعاد وبالحوادث التي تجري بعد الموت وفي عالم القبر والبرزخ ، لما سلّم زمام أموره بيد أهوائه النفسية ، ولما طأطأ رأسه يوم القيامة خجلاً ، حين يُسأل عن النعم الإلهية ، ونعمة ولاية أهل بيت العصمة والطهارة (ع) العظيمة ونعمة الأمن وسلامة العقل .

---

(١) مفاتيح الجنان .

(٢) علم اليقين ـ الفيض الكاشاني ـ ج ٢ ص ٨٥٢ .

(٣) سورة التكاثر ، الآيات : ١ ـ ٨ .

حكاية :

يُحكى أنَّ القحط أصاب إحدىٰ المدن ، فصار أهلها في حالة يُرثىٰ لها من الفقر والفاقة . وكانت في المدينة إمرأة مؤمنة تشدّ مع أبنائها حجر المجاعة علىٰ بطونهم . وفي إحدىٰ الليالي رأت أنَّ الجوع قد أعيا أطفالها ، فالتمست طعاماً من الحداد ، فراودها عن نفسها ، وشرط إطعام أطفالها باستجابتها له ، إلّا أنها أبت وعادت إلى بيتها . وفي الليلة التالية أحست بدنو الموت من أطفالها ، فقصدت الحداد مرة أخرىٰ ، لكنها رجعت دون طعام لتكرر حالة الليلة الماضية عينها ، ولمّا وصل أطفالها في اليوم الثالث إلى الرمق الأخير ، صارت مجبورة لتحمُّل منّة الحداد مرة ثالثة ، فيممت وجهها صوبه ، فوجدته على شرطه السابق ، فقالت له : أُعطيك ما تريد على أن نفعل ذلك في مكان ليس فيه إلّا أنا وأنت .

ففرح الحدّاد الذي طغت نفسه الأمّارة بالسوء وتلاشىٰ الإيمان من قلبه ، واصطحبها معه إلىٰ بيته ، فأخذت ترتجف وتقول له لماذا أخلفت وعدك ؟ فتعجّب الحداد من قولها وسألها : وهل يوجد غيري وغيرك هنا ؟

أجابته : نعم ، غيري وغيرك ، الله ، الحاضر والشاهد والناظر ، ولدىٰ كل منّا ملكين مقرّبين من الله وموكلين بكتابة أعمالنا .

﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[1]

وإذا بالرجل قد انطفأت نار شهوته وارتعدت فرائصه ، وانقلب إلى ربه نادماً عائداً تائباً .

هنالك دعت المرأة المؤمنة ربها قائلة : كما أخمدت نار شهوته فلتخمد عنه نار الدنيا والآخرة . ويُذكر أنّ الحداد بعد ذلك كان يستخرج الحديد المحمىٰ من النار بيديه ، دون أن يناله ضرر .

هذه هي نتيجة المعرفة واليقين بالمبدأ والمعاد ، فلا يستطيع على الإنسان

---

(١) سورة (ق) ، الآية : ١٨ .

غير الغريزة الدينية والإيمان واليقين بالله وبيوم الجزاء .

المعاد في السور المكية :

اهتم القرآن الكريم في سوره المكية بـالبعث والقيامـة والجنة والنـار كلّ الاهتمام ، حيث كان بصـدد ترسيـخ أسس الإسلام وركـائزه . فمـرّة تتحدث السورة عن عذاب جهنم أو عن الصف والمحشر والافتضاح ، ومـرّة عن نعيم الجنة ، والفوز بالخير والنجـاة . وبعبارة أخـرىٰ أنّ النبي (ص) أرسىٰ دعائم الإسلام في مكة ، مستعيناً علىٰ ذلك بالمعاد .

تحصيل اليقين :

ذكـرنا أنّ العلم بـالمعاد يتـأتىٰ عن طريق دراسـة كتب الفلسفة والتفسيـر والروايات وعلم الكلام ، لكنه ليس بالعامل المؤثر والفعّال ، فالعامل الأساس هو التصديق بالمعاد واليقين ، بيوم الجزاء وبالجنة والنار . وهذا التصـديق لا يتحصل بالدراسة ، بل بالعمل وحده . فاليقين مرهون بالخشوع والخضوع في الصلاة وبإتيـانها في أول وقتهـا . ومرهـون بالصـوم ، والصوم الـذي حـاصله اليقين ، هو صوم الخواص ، ومعناه عـدم الإتيان بمـا يخالف الحق تعـالىٰ . فالإنسان في هذا الصوم ، تصوم عينه وأذنه ولسانه وبطنه وقلبه وضميـره ، بل يتسامىٰ أكثر من ذلك فيُمسك عن مشاهدة غير الباري تعالىٰ . والعيد يأتي بعد هذا الصوم وحقيقة هذا العيد هي الوصول إلىٰ مقام التوحيد الفعـلي ، وحصول المعرفة واليقين بالمعاد .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1]

فلو أتىٰ الإنسان بحقيقة الصوم ممسكاً بكل جوارحـه وقلبه وفكـره عن ما يُبعده الاشتغال به عن الرّب تبارك وتعالىٰ ، فإنه سيحصل علىٰ التقوىٰ . وعيد هذا الصوم هو المعرفة واليقين بالمعاد . كذلك صلاة الليل وخلو العبد بسيّده في جوف الليل المظلم ، ومناجاته بأدعية « الافتتاح » و « أبو حمـزة الثمالي »

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٨٣ .

و « المناجات الشعبانية » و « دعاء كميل » و « دعاء الندبة » والمناجات الخمسة عشر و . . . ، من الأمور التي تنير القلوب وتزيدها يقيناً .

فيا جنود إمام الزمان (عج) كونوا من أصحاب اليقين بترفعكم عن المعاصي والذنوب ، وليكن نصب أعينكم قوله تعالىٰ :

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1]

واعلموا أنكم دائماً في محضر الحق تعالىٰ ، والنبي (ص) والأئمة الأطهار (ع) لا سيما إمام العصر والزمان (عج) ، فيجب أن نرعىٰ حرمة هذا الحضور ، ولعلماء علم الأخلاق والسير والسلوك تعليمات بشأن رعاية هذه الحرمة سنشير إليها بشكل مجمل .

المشارطة :

عندما يستيقظ المؤمن من نومه في السحر ليؤدي النوافل والفرائض ، عليه أن يخلو قليلاً مع نفسه لمشارطتها فيتذكر عقبات الموت والقبر ، ثم يعطف عنان فكره علىٰ عذاب الآخرة والجحيم ، ويتدبر في الحميم ، ويتفكر في يوم الحسرة والندامة ، وطول مقام يوم القيامة ، وأهوال يوم الطامة ، يتفكر بأنها كلّها نتيجة للأعمال السيئة وارتكاب المعاصي . ثم يتشارط أعضاءه واحداً بعد الآخر ، خصوصاً عينه وأذنه ولسانه ، مُحذراً كلاً منها من إطاعة الشيطان وعبادة الهوىٰ ، وبذلك يتهيأ لسلوك الطريق الإلهي ، وينال سعادة الدنيا وخير الآخرة .

المراقبة :

والركن الثاني في حركة الإنسان الإلهية هو المراقبة . وفيها يتيقن الإنسان بأن الله تعالىٰ يراقب أعماله .

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[2]

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ١٠٥ .
(٢) سورة النساء ، الآية : ١ .

فالإنسان المتيقن من إحاطة العلم الإلهي بكل ذرات عالم الوجود ، ومن اطّلاع جبار السمٰوات والأرض علىٰ الأسرار والضمائر والنيّات ، هذا الإنسان سيراقب دائماً أقواله وأفعاله .

يُذكر أنّ رجلاً سأل أحد أولياء الله : كيف أستطيع غضّ بصري عن النساء الأجنبيات؟ فأجابه : أن تعرف قبل النظر إلىٰ الأجنبية أن هناك من ينظر إليك .

المحاسبة :

الذين يرجون القرب الإلهي والفوز في الدنيا والآخرة ، عليهم إذا صار الليل ، بل في كل الأوقات أن يجلسوا هنيهة لمحاسبة أعمالهم وأقوالهم جميعها . فقد ورد عن الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام :

« ليس منّا من لم يحاسب نفسه »(١) .

المعاتبة والمعاقبة :

بعد أن يحاسب الإنسان نفسه ويجدها قد ارتكبت معصية أو ذنباً ، عليه أن يعاتبها ويذكرها بما شارطها به ، فيقرعها على طغيانها ويلومها علىٰ نقضها العهد ويؤنبها علىٰ تعديها حدود الله تعالىٰ . فيقول مخاطباً نفسه :

لماذا سوّدتي وجهي أمام الله ورسوله والأئمة (ع) ؟ ولماذا تركتِ نقطة سوداء علىٰ قلبي ؟ فلا طاقة لي علىٰ حر النار والشدائد الفظيعة ، والوقوف أمام الله تعالىٰ خجلاً وهو أعظمها .

ويديم اللوم والعتاب حتى تتلاشىٰ آثار السوء والمعصية . أما المعاقبة فهي تأتي بعد المعاتبة . فإن لم تجدِ المعاتبة مع النفس عليه أن يعاقبها ، ويجعل لكل ذنب عقوبة معينة . فإن اغتاب مثلاً ، عليه أن يعاهد نفسه بالامتناع عن الكلام غير الضروري ، وإن أسرف في الأكل والشرب وأطاع بطنه ، عليه أن يصوم عدة أيام وهكذا . . . .

فبالمواظبة علىٰ الأعمال المذكورة ستنفتح لقلوبنا أبواباً من عالم الباطن والملكوت ، وستشرق الأنوار الإلهية على مرآة قلوبنا .

---

(١) تحف العقول ، ص ٤١٧ .

الدرس الثالث

الموت . . . انتقال

لا يرىٰ القرآن وروايات أهل البيت (ع) والفلاسفة الإلهيـون في الموت فناءً وعدماً ، بل انتقال من نشأة إلىٰ أخرىٰ . فكما نسمي فتح العينِ على الدنيا ولادة ، كذلك نسمي الانتقال من هذه الدنيا إلى العالم الآخر موتاً .

فمن هذه الزاوية ليس هناك أي اختلاف بين الولادة والموت ، فكلاهمـا انتقال من مرتبة ناقصة إلى مرتبة أكثر كمـالاً . وكل المـوجودات ومن ضمنهـا الإنسان يطرأ عليه الانتقال في كل آن[1] .

فالآيات القرآنية والروايات تدل علىٰ أنّ الموت انتقال من عالم إلىٰ عالم ثان ومن نشأة إلى نشأة ثانية ، ومن خلال هذا الانتقال تتكامل حياة الإنسان . فالحركـة والانتقال لا يصيبـان الإنسان بـالنقص والضرر بـل يؤديان إلىٰ رقيّـه وتكامله .

---

(١) يقول الشيخ الرئيس في كتاب الشفاء « لا يمكن رؤية الإنسـان أكثر من مـرة » أي أن الإنسان دائم التحول فهو لا يبقى في نفس المرتبة الأولى حين ننظر إليه مرة ثانية .
الشيخ الرئيس أبو علي المشهور بابن سينـا من كبار حكـماء الإسلام. حفظ القـرآن وهو في العاشرة من عمره . وفي هذا العمر درس المنطق والهندسة والفلك . ثم عكف على دراسة العلوم الطبيعية وعلوم ما بعد الطبيعة والطب . وله آثار كثيرة ومن أهمها كتاب « الشفـاء » في المنطق والـطبيعيات والإلهيـات . إضافـة إلى كتاب « القـانـون فـي الطب» حيث يعتبر من أهم الكتب الـطبية في العـالم . ومن آثاره الأخـرىٰ « تفسير بعض سـور القرآن الأخيـرة وسريـان العشق في كـل المـوجـودات وكيفيـة استجـابـة الدعاء » .

الموت رحم إلى العالم الآخر :

مثل موت الإنسان كمثل ولادة طفل ، والدنيا بكل سعتها وحسنها وجمالها ليست في حقيقتها قياساً للعالم الآخر أكثر من رحم الأم قياساً إلىٰ الدنيا . وكما الطفل قبل خروجه من رحم أمه يجهل حقيقة العالم الخارجي ، كذلك الإنسان في الأغلب يبقىٰ غريباً عن عالم الآخرة حتى موته . يقول تعالىٰ في سورة آل عمران الآية ١٣٣ :

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾

لكن أنىٰ للإنسان التصديق بأن الطعام اللذيذ الذي يتناوله في الدنيا قياساً إلى طعام المتقين في الآخرة هو كالدم الذي يتغذىٰ عليه الطفل في بطن أمه .

فمثلما يتعذر إفهام الطفل في بطن أمه حقيقة الدنيا أو أن نصف له الشمس والقمر والنجوم والمجرات والجبال الشاهقة والغابات الخلّابة ، كذلك يصعب إفهام الإنسان حقيقة الآخرة والجنة والنار . فلا يمكنه تصور أكثر من بُعد واحد لذلك العالم . فالألباب تُحار في حقيقة الآخرة ، فلا شمسها كهذه الشمس ولا فضاؤها كفضاء الدنيا ولا طعامها وشرابها يشبه طعام وشراب الدنيا . فالحياة الآخرة هي (الحَيَوان) فهي الحياة الحقيقية بكل معنى الكلمة .

لذّات الجنة :

يقول الإمام الخميني (قد) في شرح دعاء السحر :

« سمعت من أحد مشايخ أرباب المعرفة رضوان الله عليه يقول : تتحقق كل اللذّات في تناول شربة ماء في الجنة أي اللذّات التي تدرك بالسمع ، كأنواع الموسيقى والألحان الجميلة ، واللذّات التي تدرك بالبصر كالنظر إلى الصور والألوان والأشكال البديعة . وهكذا تدرك باقي الحواس لذاتها . . . فعالم الآخرة هو عالم جَمع الجمع[1] .

---

(١) فيكون حكم جميع الأعضاء والجوارح واحداً في يوم القيامة فحين يتلذذ عضو تلتذ معه باقي الأعضاء .

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[1]

الموت . . . تكامل :

عندما تصبح « النطفة » في بطن الأم « علقة » تكون قد وصلت مرحلة أعلىٰ ، وحين تتحول « العلقة » إلى مضغة لا تكون قد فقدت شيئاً بل بلغت مرحلة أرقىٰ . وهكذا في المراحل التالية لتكوّن الجنين حيث يطوي الطفل سيره التكاملي حتىٰ يخرج إلىٰ الدنيا . ففي مرحلة الولادة لا يكون الطفل قد فقد شيئاً ، بل بلغ أعلىٰ المراحل . وهكذا هو الموت . فعندما يرحل الإنسان عن هذه الدنيا وينتقل إلى دار البقاء لا يكون قد خسر شيئاً أو طرأ عليه نقص معين بل دخل مرحلة أكثر كمالاً .

دار الخلود :

إنّ الجنين في بطن أمّه يملك عيناً وأذناً ويداً ورجلاً . . . لكنه لا يستخدم أيّاً منها . من هذا الأمر نفهم أنّ الجنين لم يُخلق ليبقىٰ دائماً هناك وإنما خُلق لعالم آخر سيستفيد فيه من عينه وأذنه ويده ورجله . وبعد الولادة تظهر في الإنسان أموراً لم تخلق لهذا العالم أبداً ، مثل الميل الفطري لحياة خالدة ، ولهذا يخاف من الموت مَنْ يعتبره فناءً .

والإنسان يطلب لذّة لا ألم عندها . وسعادة لا شقاء دونها ، ومن الطبيعي أنّ الجمع بين الأمرين غير ممكن في الدنيا ، فما لم يُضَحّي الإنسان بالكثير من رغباته لا يمكنه متابعة حياته الاجتماعية .

فمثلاً تتحقق السكينة واللذّة في تشكيل الأسرة وتكوين الطفل ، وفي نفس الوقت يكون هذا الأمر مصحوباً بالمشاكل الكثيرة ، إلى درجة قال علماء النفس أنّ التربية السليمة والكاملة لطفل تشيب والديه . فالحياة الهنيئة والأمن المطلق والصحة الكاملة واللذّة الدائمة التي لا ألم عندها ، كلها أمور لا تتحقق في الدنيا . ومن هنا نعرف أن الاستفادة من جميع الميول والغرائز والقوىٰ ليست مُنحصرة في الدنيا .

ففي هذا العالم لا تخرج كل الاستعدادات من القوة إلى الفعل مما

---

(١) سورة السجدة ، الآية : ١٧ .

يستوجب وجود عالم خالد تخلد لذائذه من الآلام وسعادته من الشقاء.

أسباب الخشية من الموت :

ألف : الجهل :

يخاف الإنسان من الموت لأنه يجهل حقيقته ويتصوره فناءً وعدماً . لكنه إذا اطّلع علىٰ حقيقة الموت وتيقّن بها ، فإن خوفه سيتلاشىٰ ، وسيفهم الموت كمالاً .

أمير المؤمنين (ع) الذي عرف حقيقة الموت حق المعرفة يقول :

« **والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه** »[١] .

وعن رأيه بالموت يقول علي (ع) :

« **لولا الأجل الذي كتب الله عليهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقاً إلى الثواب وخوفاً من العقاب** »[٢] .

ب : التعلق بالدنيا :

ومرة يكون حب الدنيا باعثاً للخوف من الموت ، فمن يمضي عمره وكل همّه مداراةً لبدنه والمحافظة عليه ، هذا يعتريه الخوف من الموت وانتقال الروح إلى عالم جديد . فأوحال الطبيعة تحجب الغائص فيها عن معرفة العالم الآخر الذي ينتظره . فمن يرىٰ الدنيا منزله الحقيقي الذي اعتاد عليه وتعلّق به ، يخشىٰ الموت ويسوء حاله عند الاحتضار . وقد نقل القرآن الكريم لسان حاله في قوله تعالىٰ :

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ . . . ﴾[٣]

أما لو أحكمنا علاقتنا بالعالم الآخر ، ورغبنا فيها عند الله تعالىٰ ، وتعرّفنا على أهل القدس والنور الإلهي ، وتمسكّنا بأهل البيت (ع) . . . أهل

---

(١) نهج البلاغة ص ٥٧ .

(٢) نهج البلاغة ص ٦١٢ .

(٣) سورة الأعراف ، الآية : ١٧٦ .

العصمة والطهارة وقطعنا صلاتنا بالدنيا ، فسوف لن نخشىٰ الموت بل سيكون لنا أحلىٰ من العسل .

قلبي طائر قدسي اتخذ العرش عشا
ضاق من قفص البدن الموحش . . . من العالم
من باب تلك الحفرة ، حلّق ليحط
في باب تلك الروضة
اعرض عن الدنيا، فمكانه عند السدرة
أهل العرش مأنسه ومعتمده
وأبناء الدنيا خُدعوا بغرورها
لو قتل طائرنا فليس غير الريش والجناح
فقد تجلىٰ طائرنا في الملأ الأعلىٰ
ومكانه روضات الجنّات

كان أستاذنا الكبير والقائد العظيم الإمام الخميني ، يوصي دائماً بقطع التعلقات الدنيوية ، وإخراج حب الدنيا من القلب ، واستئصال شجرة حب المال والرئاسة ، وإلّا فإن ساعة الرحيل ستكون عسيرة جداً .

« إنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنان ، اتباع الهوى وطول الأمل ، فأما اتباع الهوىٰ فيصد عن الحق وأما طول الأمل فينسىٰ الآخرة » .

والسبب الثالث لخوفنا من الموت هو أننا لم نهيء زاداً لسفر الآخرة ، ولم ندخر عملاً صالحاً يكون سبباً في نجاتنا .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾[1]

---

(١) سورة الجمعة ، الآيتان : ٦ ـ ٧ .

الدرس الرابع

إثبات أصل المعاد

إن من يُقرّ بوجود الله تعالىٰ ، يعتقد بالمعاد أيضاً . فيبدو أنه لا يوجد مَن يؤمن بالمبدأ وهو ينكر المعاد في نفس الوقت . وهناك الكثير من الأدلة التي تثبت أصل المعاد . ولكون بحثنا في إطار القرآن الكريم ، سوف نشير إلىٰ الأدلة القرآنية فقط .

الفطرة :

دليل الفطرة من بين الأدلة التي تثبت يوم الجزاء . فلو ترك الإنسان الخرافات لعرف « المبدأ » ومن بعده عرف « المعاد » . « الفطرة » تعني الإحساس الباطني مقابل « العلم » الذي يعني الإحساس الخارجي . فإحساسنا بالشخص الجالس أمامنا يسمىٰ علماً ، لكنه « علم بالعرض » لا « علم الذات » يعني عندنا علم بما انعكس في ذهننا من الخارج . أما إحساسنا بالعطش ، فهو إحساس باطني . قال تعالىٰ في القرآنِ الكريم :

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾[1]

فالإنسان الذي تتقاذفه أمواج البحر وتحيط به الأخطار من كل مكان ، يرىٰ جميع الأسباب تتساقط وتتهافت ، ولا يرىٰ غير الله تعالىٰ مُسبب الأسباب فلا يتوسل إلّا به سبحانه ، لأنه يدرك بفطرته أنّ القادر علىٰ نجاته هو الله تعالىٰ

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية : ٦٥ .

فقط . في هذه الحالة يكون الإيمان بالمبدأ كحصول الإحساس بالعطش ، إحساس فطري . وحين ينجو الإنسان من البحر يغفل عن فطرته ، ويصبح مشركاً . وإذا كان الإنسان ذا نفس سليمة فإن فطرته الإلهية ستهديه دائماً إلى الطريق الصحيح للمبدأ والمعاد . ويكون مصداقاً للآية الشريفة :

﴿ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ . . . ﴾(1)

هكذا أشخاص ينظرون إلىٰ الباري تعالىٰ بأبصار قلوبهم ودليلهم الدائم إليه سبحانه هو نور الفطرة ، كما نقرأ في دعاء يوم عرفة :

« متى غبت حتى تحتاج إلىٰ دليل يدل عليك ، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك عمِيَت عين لا تراك » .

أشرق العالم بنورك
فأنت أوضح من سواك

وأيضاً :

متى بَعُدْتَ لأطلب الدنو
متى غبت لأبحث عنك .

فالإنسان يعتقد فطرياً « بالمبدأ والمعاد » لكن الأهواء والشهوات الدنيوية تلوّث فطرته وتطبع على قلبه فينكر المعاد ليتحرر من عذاب الضمير فيمضي حياته الدنيوية في اللهو واللعب .

غائية الخلق :

الدليل الثاني لإثبات المعاد هو غائية الخلق . فلولا وجود المعاد لكان عالم الوجود عبثاً محضاً . كما الأطفال يمضون الساعات في صناعة بيت خشبي مثلاً ، ثم تذهب كلُّ أتعابهم أدراج الرياح بضربة واحدة يهشمون بها ما صنعوا . ولو أنّ عمل الأطفال هذا غايته اللعب ، فستكون عبيثة الخلق أسوأ

(1) سورة النور ، الآية : ٣٧ .

منه لبطلان ما لا غاية له . فكل عالم الوجود يشهد بالحكمة والتقدير في الخلق وهذا ليس خافياً على أحد .

كيف نصدّق خلق النطفة من طين ، ثم تحوُّلها إلى إنسان يتحمل المشاق والمتاعب والآلام في حياته ثم عاقِبَتُه العدم ؟ وما الفرق بين الظالم والمظلوم إن لم يكن هناك يوم الجزاء ؟ وما هي الحكمة من الخلق ؟

القرآن الكريم يتحدث في هذا الخصوص :

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾(١)

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ ﴾(٢)

فالاعتقاد بعبثية الخلق من شأن الكافر والمنكر للمبدأ ، وإلّا فالمؤمن يؤمن حتماً بالمعاد .

وفي مكان آخر يقول القرآن الكريم :

لو لم يكن خلق السموات والأرض وما بينهما مؤدياً إلىٰ غاية ثابتة باقية وهي الله تعالىٰ ، ولو انتفىٰ يوم الحساب ، لكان الخلق باطلاً والباطل بمعنىٰ ما لا غاية له مستحيل من الحكيم ولا ريب في حكمته تعالىٰ . فوجب وجود المعاد لينتفي العبث والبطلان عن عالم الوجود .

عدالة الله تعالىٰ :

العدالة هي الدليل الثالث على إثبات المعاد . فعدالة الله تعالىٰ تقتضي بوجود يوم يحاسب فيه الإنسان على أعماله وأقواله ، ولولا المعاد والحساب لكان ذلك ظُلماً من الباري ، تعالىٰ عن ذلك علواً كبيراً . فانتفاء المعاد لا ينسجم والعدالة الإلهية .

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية : ١١٥ .
(٢) سورة ص ، الآية : ٢٧ .

فلو لم يكن المعاد ، فكيف يعاقب مجرم مثل صدام الذي قتل الآلاف من الأبرياء واعتدىٰ على الأعراض ودمّر إمكانيات المسلمين ؟ أيمكن الاقتصاص من كل هذه الجرائم في الدنيا ؟ وهل يعوض حكم إعدامه وشنقه عن آلاف الدماء البريئة ؟ فلا يمكن الاقتصاص للمظلومين إلّا بوجود المعاد . ولمّا كانت العدالة الإلهية تقتضي الاقتصاص بلا زيادة أو نقصان فلا يتيسّر تحققها إلّا يوم المعاد .

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾(1)

على ضوء هذه الآية يكون استثناء حتى مثقال ذرة من عمل الخير أو الشر في الجزاء ما لا يتناسب والعدالة الإلهية . فوجود المعاد ضرورة وحتم ، وبعبارة أخرىٰ وجود المعاد واجب على الله تعالىٰ . بالطبع ليس هذا الوجوب كالواجبات التي في عهدة الناس . بل هو كنور الشمس . فإشراق نور الشمس جزء لا ينفك عنها . فلا تكون الشمس شمساً وهي عديمة النور .

كذلك « العدل » وتابعه « المعاد » من ضرورات وجود الباري تعالىٰ .

هل يستوي المقاتل الزاهد في اللذّات والمقتحم لأهوال الحرب مع القاعد ؟ لا يستويان في الدنيا والآخرة . فنورانية القلب وصفاء الروح والمقامات المعنوية نصيبه في الدنيا ، والسعادة الأبدية ومرافقة الأولياء والأنبياء والصديقين في الآخرة .

فأية عدالة أن يساوىٰ في مكافأة المجاهد بماله ونفسه والقاعد ؟

لهذا خاطب القرآن الكريم أولئك الذين يذودون ويدافعون عن ثغور الإسلام والإنسانية ويسطرون الملاحم الخالدة بقوله تعالىٰ :

---

(1) سورة الزلزلة ، الآيات : ٦ ـ ٨ .

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾[1]

مسير الإنسان التكاملي :

الدليل الرابع لإثبات المعاد هو قانون التكامل . وقد بيّن القرآن الكريم هذا القانون بالشكل التالي : بادئاً كان الإنسان تراباً ثم صار نطفة وبعدها علقة ثم مضغة ثم أصبح إنساناً حياً . وهو حين يخرج من بطن أمه يكون طفلاً ، ثم يبلغ أشده ، وبعدها يهرم ، ثم يموت . وبعد الموت هناك تكامل آخر ، فالموت لا يطوي الصفحة لكتاب حياة الإنسان . فمسير التكامل للإنسان لا يتوقف بالموت وإنّما يستمر ، وهذا ما تؤكده الآيات المباركة :

﴿ . . . إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾[2]

﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾[3]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾[4]

ولمولوي أبيات شعرية يشير فيها إلى المسير التكاملي للإنسان :

كنت جماداً فمت فصرت نباتاً

---

(١) سورة الفجر ، الآيات : ٢٧ ـ ٣٠ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٥٦ .

(٣) سورة النجم ، الآية : ٤٢ .

(٤) سورة الحج ، الآية : ٥ .

ومن النبات مُت فصرت حيواناً
ومن الحيوانية مت فصرت آدمياً
فلماذا أخشىٰ النقصان من الموت
وفي المرة الأخرىٰ سأخرج من البشرية
لأكون كالملائكة بريش وجناح
ثم أتحول عن الملائكية أيضاً
كل شيء هالك إلاّ وجهَه
وأصير ملك طائر مرة أخرىٰ
أصير ما لا يخطر على بالك(١)

---

(١) مثنوي مولوي .

الدرس الخامس

المعاد الجسماني

المعاد الجسماني يعني حضور الإنسان يوم القيامة بروحه وجسمه نفسهما. وبعد الحساب يكون مصيره إما الجنة أو النار والمعاد الجسماني كالصلاة والصوم يعتبر من ضروريات الإسلام .

وقد اختلف الفلاسفة في كون البعث جسدياً أم روحياً ، فاعتقد بعض الفلاسفة المسلمين مُسَلْمين بالبعث الجسدي .

فالشيخ الرئيس وبعد بحث المعاد يقول في كتاب الشفاء : حتى لو لم نستطع إثبات المعاد الجسدي بالدليل ، إلّا أن الصادق المصدق النبي الأكرم (ص) أخبر عنه فعلينا القبول به تعبداً .

والحركة الجوهرية للمرحوم صدر المتألهين كانت أساساً لإثبات البعث الجسدي .

فالمعاد الذي هو من أصول الدين هو المعاد الجسمي . وهذا عند كل المسلمين سنّة وشيعة ، وفقهاء وفلاسفة وعلماء الكلام . فبنفس تركيبه البدني يحشر الإنسان يوم القيامة للحساب ، وبالهيئة عينها ينتقل إلى الجنة أو النار .

لذائذ الجنة :

لذائذ الجنة قسمان :

١ ـ اللذائذ الروحية :

كالكلام مع الله تعالىٰ ومجالسة النبي الأكرم (ص) وأهل البيت (ع) .

٢ ـ اللذائذ الجسدية :

كالأكل والشرب ومقاربة حور العين ومشاهدة مناظر الجنة والسكن في القصور . . . .

عذاب النار :

١ ـ العذاب الروحي :

كعذاب الضمير ، والحسرة وباقي الآلام الروحية .

﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾[1]

فحسب الآية الشريفة ، تتعرض الروح الإنسانية لنار جهنم كما تتعرض الأجساد .

٢ ـ العذاب الجسدي :

كاحتراق اللحم والجلد والعظم ، وشرب الحميم وأكل الزقوم .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾[2]

المعاد الجسمي من خلال الآيات والروايات :

وردت حكايتان في سورة البقرة (الآيتين ٢٥٩ ـ ٢٦٠). بخصوص النبي « عزير » (ع) وحضرة إبراهيم (ع) .

حكاية النبي عزير :

عزير من أنبياء الله تعالى وعباده الصالحين ، خرج من داره قاصداً مكاناً بعيداً عن قريته التي كان بها ، فلّما سار إلىٰ ما كان يقصده مرَّ بالقرية التي

---

(١) سورة الهُمَزة الآيات ٦ ـ ٩ . (٢) سورة النساء ، الآية : ٥٦ .

ذكر الله تعالىٰ أنها كانت خاوية علىٰ عروشها ، فوقف معتبراً بما يشاهده من أمر القرية الخربة التي كان قد أبيد أهلها وشملتهم نازلة الموت وعظامهم الرميمة بمرأىٰ ومنظر منه (ع) ، فهاله ما شاهده منها فاستعظم طول مدّة مكثها وعند ذلك قال :

﴿ . . . أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾(١)

وقد كان هذا الكلام ينحل إلى جهتين :

إحداهما : استعظام طول المدة والإحياء مع ذلك .

الثانية : استعظام رجوع الأجزاء إلى صورتها الأولية الفانية بعد عروض هذه التغيرات غير المحصورة .

ورغم أن « عزير » كان معتقداً بالمعاد الجسدي ويعلم أن الله تعالىٰ قادر على إحيائها لكنه أراد الوصول إلىٰ « حق اليقين » وحين جلس قرب الماء وإلى جانبه حماره ، أماته الله تعالىٰ ، ثم بعثه بعد مائة عام ، وسأله : كم لبثت ؟

قال :

﴿ . . . لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾(١)

فرد الله سبحانه عليه وقال :

﴿ . . بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ . . . ﴾(٣)

وقد فعلنا بك ما فعلنا لنبيِّن لك ولنجعلك آية وحجة للناس ، حتى لا ينكروا المعاد . فانظر إلى العظام كيف ننمّيها ونكسوها باللحم ثم نحييها .

و « عزير » الذي شاهد حماره الميّت قبل مئة عام وقد جمعت عظامه قال:

---

(١) (٢) (٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٩ .

﴿ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

وهذه الحادثة تثبت المعاد الجسدي بشكل رائع .

قصة إبراهيم (ع) :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾(١)

لما سأل إبراهيم (ع) ربه أن يريه كيفية إحياء الموتىٰ أمره الله تعالىٰ أن يأخذ أربعة طيور ثم يقتلها ويخلط ويمزج أجزاءها وأن يفرق الأجزاء المختلطة ثم يضع كلَّ قسم في مكان بعيد عن الآخر على قمة جبل ، ثم يدعوهن ليأتينه سعياً ، ويعلم أنّ الله تعالىٰ قادر على كل شيء وهو بكل شيء عليم .

فعمل إبراهيم (ع) بالأمر الإلهي ، ودعىٰ الطيور إليه فتميّزت عظام وجلود ولحوم الطيور عن بعضها البعض ، وعادت الروح لكل طير وأتته مسرعة .

وهذه القصة تمثل نموذجاً آخر لإحياء الموتىٰ .

نُطق الأيدي والأرجل في يوم القيامة :

حين تقدّم صحيفة أعمال المسيئين إلىٰ أصحابها يوم القيـامة ينكـرونها ، لكن الله تعالىٰ يقول :

﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾(٢)

ويظهر من عبارة ﴿ تكلّمنا أيديهم وتشهد أرجلهم ﴾ أن أجسادهم ستنطق يوم القيامة ، فالروح لا تملك يداً ورجلاً ، وهذا يثبت المعاد الجسمي .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٦٠ .

(٢) سورة يس ، الآية : ٦٥ .

قصة أُبي بن كعب :

« أبي بن كعب » رجل معاند ، حضر عند الرسول (ص) ، ومعه مجموعة عظام نخرة فقام بتهشيمها حتى صارت كالتراب فأخذ حفنة منها بيده ونفخها في الهواء ، ليسأل الرسول (ص) : كيف يحيي هذه العظام ؟

فنزلت هذه الآية الشريفة :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[1]

الآيات الأولىٰ من سورة « القيامة » تثبت المعاد الجسمي :

لا يُقسم الله تعالىٰ في سورة « القيامة » بالقدرة علىٰ جمع العظام الرميم وحَسْب وإنما بالقدرة علىٰ تصوير البنان علي صورها التي هي عليها بحسب الخلق الأول . فبعبارة ﴿ بلىٰ قادرين علىٰ أن نُسَوّي بَنَانَهُ ﴾[2] هي الدليل المحكم علىٰ أصل المبدأ . فهناك بين الناس وجوه اشتراك واختلاف ، بحيث لا يمكن العثور بين أربعة مليارات إنسان علىٰ شخصين متماثلين في كل الأوصاف وهذه من دلائل القدرة الإلهية وهو ما أشار إليه تعالىٰ :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾[3]

ومن الأدلة الأخرىٰ على عظيم صنع الباري عزّ وجلّ هو ما علىٰ بنان الإنسان من الهيئات والخطوط التي لا يزال ينكشف للإنسان منها سِرٌّ بعد سِرْ . فمن بين كل الناس لا تتشابه أشكال الخطوط لشَخصين أبداً .

ولهذا صرح القرآن الكريم : ﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾[4] .

---

(١) سورة يس ، الآيتان : ٧٨ ـ ٧٩ .

(٢) سورة القيامة ، الآية : ٤ .

(٣) سورة الروم ، الآية : ٢٢ .

(٤) تتضمن هذه الآية الدلالة المطابقية لمعاد الجسم والدلالة التضمينية على المبدأ .

الأكل والشرب في عالم الآخرة :

نقرأ في سورة الحاقة :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾[1]

فالخطاب بـ ﴿ كلوا واشربوا ﴾ يقتضي في المخاطب « فماً ويداً . . . » وجهازاً هضمياً متكاملاً وإلّا كان الخطاب لغواً. ومن هذه العبارة نستفيد وجود المعاد الجسمي . وهناك الكثير من هذه الآيات التي تصرّح بالمعاد الجسمي بحيث لا تبقي مجالاً للتأويل .

---

(١) سورة الحاقة ، الآيات : ١٩ ـ ٢٤ .

شبهة الآكل والمأكول

للجاحدين بالمعاد الجسماني شبهات لا تصمد أمام البرهان والدليل العلمي . فكما قال الشيخ الرئيس في « الشفاء » أن الصادق المصدق يعني النبي الأكرم (ص) ، قد أخبر عن المعاد الجسماني ، فعلينا التصديق به حتى لو لم يُثبت بالبرهان . والشبهة مقابل كلام الله تعالىٰ ، هي كالجهل مقابل العلم ، وهي في حقيقتها نوعاً من الجهل وليست بشبهة .

تقرير الشبهة :

هذه الشبهة قديمة ترجع إلى ما قبل ميلاد المسيح (ع) فقد ذكرها أفلاطون والعلماء الذين جاءوا بعده وعلماء الكلام والفلاسفة المسلمين بتقارير مختلفة من بين هذه التقارير اخترنا أشملها وأقربها إلى الأسلوب العلمي ، تقول الشبهة :

إنَّ عملية التحول والتبدل ماضية علىٰ الدنيا منذ آدم (ع) وإلى يوم القيامة ، علىٰ هذا يتجدد تكوّن الإنسان في هذه الدنيا ، فهو يموت ويُصبح تراباً ثم يتحول التراب إلىٰ نبات والنبات إلى نطفة والنطفة تصبح إنساناً ، ومرة أخرىٰ يموت الإنسان وهكذا يعيدُ مسيره السابق .

والمتغيّر في هذه الحالات هو الصورة وليس المادة . وبعبارة ثانية فإن ما يصبح تارةً نباتاً وأخرىٰ حيواناً وثالثة تراباً ورابعاً إنساناً هو الإنسان نفسه .

في ضوء ذلك أي الحالات سيشملها الحشر يوم القيامة ؟ فقد تبدّل جسم الإنسان عدة مرّات ، وتلبّست مادته بصورة مختلفة ، فروح الإنسان الذي مات

قبل ملايين السنين وتبدّل إلى جسم آخر وربما تمثل صوراً متعددة ، هذه الروح لأي الأجسام ستكون تابعة ؟

كما إنه إذا صار إنسان معين غذاءً بتمامه لإنسان آخر ، فالمحشور لا يكون إلّا أحدهما ، ثم إن الآكل إذا كان كافراً والمأكول مؤمناً يلزم أما تعذيب المطيع وتنعيم العاصي أو كون الآكل كافراً معذباً والمأكول مؤمناً منعماً مع كونهما جسم واحد .

تقرير آخر للشبهة :

في تقرير آخر للشبهة يقال أنّ هذا السؤال يصدق على الإنسان دون « الآكل والمأكول » . فالإنسان يتغير كلياً كل بضع سنوات . فبعد كل سبع سنوات تتغير كل خلايا البدن . فالإنسان في الرابعة عشرة هو غيره في السابعة من العمر وفي الحادية والعشرين غير الأوليين . بناء على ذلك يكون البدن في حالة تحلل وتبدّل دائميين . فالشبهة تكوّن أي بدن تتبع الروح ، بدن الشباب أم بدن الشيخوخة ، ولو افترضنا أن الإنسان ارتكب ذنباً في شبابه ومات في مشيبه ، فأي البدنين تتبع الروح ؟ البدن الذي عصىٰ في الشباب أم ذاك البدن العابد والزاهد في الشيخوخة ؟

فلو تَبِعَتْ الروح البدن الشاب لاقتضى عذاب الشخص ، لكن ما هو حساب سنوات الشيخوخة التي قضاها الشخص بالعبادة والزهد ؟ ولو تَبعتْ الروح بدن الشيخوخة لاقتضىٰ تنعم ذلك الإنسان ، ولكن ما هو حساب المعصية في شبابه ؟

دفع الشبهة عقلياً :

يعتبر أستاذنا الكبير قائد الثورة الإسلامية العظيم ، مسألة استحقاق العقاب والثواب من الأمور العرفية ، فيقول : لننظر لما يستحسنهُ العقلاء من الثواب والعقاب وما يستقبحون[1] . فمن فرّ بعد ارتكاب جريمته وعُثر عليه بعد عشر

---

(١) الإمام الخميني لم يطرح لعامة الناس أياً من مسائل الجبر والاختيار بطريقة البحوث الفلسفية والكلامية أو العرفانية المعمقة ، بل طرحها وحلّها بالاستفادة من عرف العقلاء .

سنوات ، ألا يُقال أنه نفسه الذي أجرم قبل عشر سنوات ؟ أفلا يكون مستحقاً للعقاب ؟ هل يعترض عاقل على عقابه ؟ فرغم تغير خلايا بدنه كلية ، يبقىٰ نفسه ذلك الظالم المستحق للعقاب .

كذلك لو أحسن أحد الأشخاص إليك وحدث أن التقيته بعد عشرين عاماً ، فهل تردّ له الجميل ؟ أفلا تشكره ؟ وعلىٰ الرغم من تغيّر خلايا بدنه وتحوله إلى شخص ثاني ، ألا تعتبر نفسك مديوناً لإحسانه ؟

هذان المثالان في الثواب والعقاب ، خير جواب عقلي علىٰ شبهة « الآكل والمأكول » .

إنّ شبهة « الآكل والمأكول » نابعة من الجهل ، فهي ليست في واقعها شبهة علمية ، ورغم ذلك رد عليها القرآن والفلاسفة .

الأساس الفلسفي للمبنىٰ العقلي :

لا يتوهم ضعف الأساس الذي يقف عليه المبنىٰ العقلي ، فأساسه فلسفياً ، يتمثل بالعبارة الفلسفية المعروفة « أن وحدة المادة محفوظة بوحدة الصورة » .

فحقيقة الإنسان في آنيّته. بعبارة ثانية الإنسان هو الشيء الذي يشار إليه بألفاظ مثل « أنا » و « أنت » و « هو » . . . وهذه الألفاظ لا تتغير أبداً ، ومرور الوقت الباعث على تبدل خلايا البدن والتغير الكامل لجسم الإنسان لا يؤثر عليها . فكما لاحظنا في مثالنا السابق ، فإنك حين ترىٰ المحسن إليك قبل عشرين عاماً ، تعتبره نفسه ، وتخاطبه « أنت » الذي أحسنت إليّ قبل عشرين عاماً . « أنت » نفسك قبل عشرين عاماً ، و « أنا » نفسي قبل عشرين عاماً .

و « أنا » و « أنت » و « هو » لا تُعدم ولا تتغير أبداً ، إنما المتغير هو البدن وبتعبير حافظ « الخرقة » . فالبدن كاللباس ، والبدن الجديد كاللباس الجديد ، وكما اللباس وسيلة الإنسان للوقاية من البرد والحرّ كذلك البدن واسطة الإنسان للإحساس باللذّة والعذاب .

فالذي يتعرض للتعزير تحس روحه بالألم عن طريق بدنه . كذلك اللذات الروحية يتم الإحساس بها بواسطة البدن .

لهذا لا يلتذ الميت بأكاليل الورد المقدمة تكريماً له ، فقد فارقت روحه بدنه . أما الإنسان الحيّ فهو يلتذ بأكاليل الورد وهي لذّة روحية . فاتضح أن البدن بمثابة اللباس للإنسان الذي يعيش اللذّة أو الألم هو « أنا » أو حقيقة الإنسان ، والبدن وسيلة تحقق اللذّة أو الألم .

فبدون البدن لا يمكن أن تلتذ أو تتعذب الحقيقة الإنسانية أو الـ « أنا » والـ « أنت » .

فالحقيقة الإنسانية هي « أنا » و « أنت » ولولا البدن لما احترقت « أنا » و « أنت » ولما أحسست بعذاب جهنم .

نستخلص من عرض الأساس الفلسفي للمبنىٰ العقلي أن روح الإنسان تثاب وتعاقب . والوسيلة لإثباتها ومعاقبتها هو بدن الإنسان .

دفع الشبهة بالآيات القرآنية :

الفلاسفة المسلمون وعلماء الكلام والمفسرون دفعوا هذه الشبهة . إلّا أن أحسن الأجوبة عليها ما جاء به القرآن الكريم ، حيث أشارت بعض الآيات القرآنية الشريفة إلى الرد دون أن تطرح أصل الشبهة .

حيث نجد الإشارة إلىٰ هذا الموضوع الدقيق في أربع مواضع في القرآن الكريم .

١ ـ سورة الإسراء الآية ٩٩

﴿ . . . أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ . . . ﴾

فعبارة « أن يخلق مثلهم » تعني أن العالم مثل هذه الدنيا، وليس عينها . فلو كان عينها لقال: « أن يخلقهم » وقد جاءت هذه الحقيقة في آية أخرى:

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾[1]

فعالم الآخرة غير هذه الدنيا (ففي يوم القيامة) تطوى المنظومة الشمسية وتتلاشى الدنيا بينما ذلك العالم يبقى حياً . والبدن الدنيوي يختلف عن بدن العالم الآخر .

---

(١) سورة إبراهيم ، الآية : ٤٨ .

فهناك تنطق الأبدان :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1]

فيخاطبهم الإنسان :

﴿ . . . لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ ﴾

فتجيبه جوارحه :

﴿ . . . أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ . . . ﴾[2]

وأرض ذلك العالم تحدّث أخبارها :

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾[3]

٢ - سورة يس الآية ٨١

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

٣ - سورة الواقعة الآيتان ٦٠ - ٦١

﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

٤ - سورة النساء الآية ٥٦

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ ﴾

نستنتج من مجموع الآيات المذكورة أعلاه ما يلي :

---

(١) سورة فصلت ، الآية : ٢٠ .

(٢) سورة فصلت ، الآية : ٢١ .

(٣) سورة الزلزلة ، الآيات : ١ - ٤ .

١ ـ معاد الإنسان معاد جسماني .

٢ ـ البدن في عالم الآخرة غير البدن الدنيوي .

٣ ـ يحس الإنسان بألم العقاب ولذّة الثواب بواسطة بدن الآخرة ، وكلما نضج هذا البدن من شدّة العذاب الإلهي ، استبدل ببدن آخر كـوسيلة لعذاب المجرمين .

الدرس السابع

كيف يُحشر الإنسان يوم القيامة ؟

يستفاد من القرآن الكريم أنّ الإنسان يبعث يوم القيامة بنفس هويته التي صنعها لنفسه في الدنيا . فمن واظب على صقل إنسانيته وسلك سبيل الكمال ونال درجاته العليا حُشر إنساناً كاملًا ، وبعبارة أخرىٰ (وحسبما ورد في الروايات) يُحشر كالبدر فتلتذ لرؤيته أبصار أهل المحشر .

ومن انسلخ من إنسانيته متسافلاً إلى البهيمية يحشر يوم القيامة كالبهائم ويرد المحشر كالكلب أو الذئب أو أفعىٰ أو . . . ورغم هيئته الحيوانية في عالم جمع الجمع غير أنّ الجميع يعرفه . وهذا هو المعنىٰ الأول لتجسّم الأعمال في عالم الآخرة .

الأعمال والنيّات تُكوّن الملكات :

بيّن القرآن الكريم في آيات متعددة أن لكلّ صفة راسخة أو ملكة نفسانية أعمال ونيّات تنشأ عنها والأعمال والنيّات بدورها تصنع الملكات، فمن ترك المحرمات وأتىٰ بالواجبات تكوّنت عنده تدريجياً ملكة العدالة ، وقد يتصف بالعدالة مَن لا يترك واجباً ولا يرتكب ذنباً . فمنشأ سلامة النفس هو الفكر والقول والعمل الصالح ، ومن سلمت نفسه صلحت أفعاله .

﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾[1] .

فلو أردتم نفساً مطمئنة لا مكان فيها للقلق والاضطراب فاذكروا الله تعالىٰ .

---

(١) سورة الرعد ، الآية : ٢٨ .

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ ﴾(١)

فالله تعالىٰ يريد الهداية لمن أرادها واستعد وعمل لها . فترك الذنوب والقيام بالواجبات تهيء الأرضية الصالحة لشرح الصدر وتنوير القلب . وبعبارة ثانية فمن لم تشمله العناية الإلهية وقضىٰ حياته بالمعاصي والذنوب والغيبة والنميمة والإنقاص من الآخرين وإيذائهم وبث الفرقة و . . . فلا يحيا إلاّ قلقاً مضطرباً مهموماً نكداً .

نقرأ في الآية ١١٠ من سورة التوبة قوله تعالىٰ :

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

فمن نال الملكات الإلهية عاش إنساناً كاملاً في الدنيا وفاز في الآخرة . ومن لم يحظ بالملكات الإنسانية والإلهية انعكس ذلك على نفسه وانقلبت حقيقته فحشر يوم القيامة عليها .

﴿ . . وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ ﴾(٢)

فالذين أعمت أبصارهم غشاوة العصبية والعناد ، والذين صموا أسماعهم عن الحقائق فلم يطيعوا كلام الحق تعالىٰ ، أولئك انسلخوا عن حقيقتهم ولبسوا غيرها وسيحشرون يوم القيامة عمياً وبكماً وصماً .

عاقبة مخالفة الأحكام الإلهية :

الذين لا يمتثلون في الدنيا لأحكام الشارع المقدس سيعجزون عن ذلك يوم القيامة .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١٢٥ . (٢) سورة الإسراء ، الآية : ٩٧ .

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٤٢ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴾(١)

ففي يـوم القيامـة يتـأثـر هؤلاء بشـدّة من العـظمـة الإلهيـة ، فيحـاولـون السجود لله تعالىٰ ، لكنهم سيعجزون عن السجود ، فلمـا دُعوا إلىٰ السجـود في الدنيا وهم سالمون ، أبوا أن يسجدوا . . . فترسخت عندهم ملكة العصيان في الدنيا ، فصارت حقيقتهم يوم القيامة بشكـل لا يقدرون فيـه على السجود معها .

عاقبة الكذّاب :

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾(٢)

بالتكرار يصبح الكذب ملكة نفسية ، وهذه تغيّر حقيقة الإنسان ، فيُحشـر الكذّاب يوم القيامة على حقيقتـه ، فيكذب أمـام الله تعالىٰ ، ويحسب أن الله تعالىٰ يظلمه قاسماً أنه من أهل الجنة وليس من أهل النار .

عُميان المحشر :

﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾(٣)

تشير الآية الشريفة إلى الأثر السيىء للهبوط المعنوي علىٰ حقيقة الإنسان في الدنيا وإلىٰ حشره يوم القيامة أعمىٰ ضالاً ، محروماً من النظر إلىٰ جمـال الحق تعالىٰ .

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾(٤)

فالإعراض عن ذكر الله تعالىٰ يستتبع مرضين مهلكين :

---

(١) سورة القلم ، الآيتان : ٤٢ ـ ٤٣ .
(٢) سورة المجادلة ، الآية : ١٨ .
(٣) سورة الإسراء ، الآية : ٧٢ .
(٤) سورة طه ، الآية : ١٢٤ .

أولهما : ضنك في العيش في الدنيا .

ثانياً : يحشر أعمىٰ في الآخرة .

﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾[1]

فالعمىٰ في الآخرة نتيجة لعمل الإنسان في الدنيا ، فالدنيا هي التي تغيّر حقيقة الإنسان ، فالجحود بالآيات القرآنية ومعصية الأوامر الإلهية ، وتعدي حدود الله تعالىٰ تؤدي إلىٰ العمىٰ في الآخرة . هكذا أفراد لم تكن حقيقتهم في الدنيا حقيقة إنسانية فحشروا بحقيقتهم غير الإنسانية ، أولئك لم يُبصروا الآيات الإلهية في الدنيا فحشروا عميان .

في تفسير مجمع البيان ينقل الشيخ الجليل الطبرسي (رض) ، في تفسير الآية الشريفة : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾[2] هذا الحديث: كان معاذ بن جبل جالسا قريباً من رسول الله (ص) في منزل أبي أيوب الأنصاري فقال معاذ : يا رسول الله أرأيت قول الله تعالىٰ : ﴿ يوم يُنفَخُ في الصور فتأتون أفواجاً ﴾ الآيات ، فقال : يا معاذ سألت عن عظيم من الأمر ثم أرسل عينيه ثم قال : يُحشر عشرة أصناف من أمتي أشتاتاً قد ميزهم الله من المسلمين وبدّل صورهم ، بعضهم على صورة القردة وبعضهم على صورة الخنازير وبعضهم منكسون أرجلهم من فوق ووجوههم من تحت ثم يُسحبون عليها وبعضهم عمي يترددون وبعضهم صُمٌ بكمٌ لا يعقلون وبعضهم يمضغون ألسنتهم فيسيل القيح من أفواههم لُعاباً يتقذرهم أهل الجمع وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم وبعضهم مصلبون علىٰ جذوع من نار وآخرون أشد نتناً من الجيف ، وبعضهم يلبسون جباباً سابغة من قطرات لازقة بجلودهم ، فأما الذين علىٰ صورة القردة فالقتات[3] من الناس وأما الذين علىٰ صورة الخنازير فأهل السحت وأما

---

(١) سورة طه ، الآيتان : ١٢٥ ـ ١٢٦ .

(٢) سورة النّباءِ ، الآية : ١٨ .

(٣) النمامون .

المنكسون على رؤوسهم فآكلة الربا والعميٰ الجائرون في الحكم والصم والبكم المعجبون بأعمالهم والذين يمضغون ألسنتهم فالعلماء والقضاة الذين خالفت أعمالهم أقوالهم ، والمقطّعة أيديهم وأرجلهم الذين يؤذون الجيران ، وأما المصلبون علىٰ جذوع من نار فالسعاة بالناس إلىٰ السلطان والذين هم أشد نتناً من الجيف فالذين يتمتعون بالشهوات واللذّات يمنعون حق الله في أموالهم والذين يلبسون الجبات فأهل الفخر والخيلاء » .

نعم كل فرد يظهر يوم القيامة بالصورة التي تقتضيها أعماله .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴾[1]

---

(١) سورة الرحمٰن ، الآيات : ٣٩ ـ ٤١ .

الدرس الثامن

المعنىٰ الآخر لتجسم الأعمال

في القرآن الكريم معنيان لتجسّم الأعمال . وقد سبقت منّا الإشارة للمغنى الأول . أما المعنىٰ الثـاني فهـو عبـارة عن تجسّم النيّـات والأفكـار في يـوم القيامة . وهذه ليست أمور عرضية كما يبدو للوهلة الأولىٰ بل أمورٌ حقيقية . قد يظن أن أثر النيّـات والأفكار في أفعـال الإنسان ينتهي بـانتهاء الأفعـال . لكن الواقع أن النيّات والأفكار لا تنتهي وتنعدم ، ففي يوم القيامة تتجسم بما يناسبها من صور لتقف إلى جانب الإنسان في صف المحشر .

الجنة والنار قائمتان :

يُستفاد من القرآن والروايات أن « الجنة » و« النار » موجودتـان من قبل . وهذه الآيتان تؤكد ما نقول :

﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾[1]

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[2]

القيامة حصيلة مسعىٰ الإنسان :

إنّ نعيم الجنة وعذابات الجحيم تتناسب مـع أعمال الإنسـان . فأعمـالنا حسب القرآن الكريم ، هي التي تبني لنا قصوراً في الجنة أو تُهيء لنا النار ،

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٣١ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٣٣ .

الحريق ، والعقارب والحيّات . فلا عجب من قولنا : القيامة حصيلة مسعىٰ الإنسان .

« إنمّا أعمالكم ترد إليكم »[1].

وقد أشار القرآن الكريم إلىٰ هذه الحقيقة بتعابير مختلفة فقد قال عز وجل :

﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ . . . ﴾[2]

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ . . . ﴾[3]

هذه التقارير تشير إلىٰ أن نعيم الجنّة ، وعذابات النار ما هي إلّا نتاج أعمالنا في الدنيا ، فما يرسله الإنسان يجده حاضراً أمامه .

مواد البناء في الجنة :

لهذا أشار الرسول (ص) في رواية المعراج إلى مشاهدته لملائكة في الجنة مشغولين ببناء القصور . لكنهم كانوا يتوقفون عن العمل بين الفينة والأخرىٰ . وحين سألهم عن السبب أجابوه ، أنّ مواد البناء في الجنّة تأتي من الدنيا . فما دام الإنسان في حالة عبادة أو خدمة المسلمين أو الإنفاق ، أو جهاد النفس أو . . . فإن أسباب تهيئة نعيم الجنة وبناء قصورها متوفرة . لكنه عندما يغفل أو يتوانىٰ تنقطع الأسباب ، فتتوقف الملائكة عن العمل . فقد يكون الشخص من أهل الجنّة ، لكنه لا يملك شجرة أو قصراً أو نهراً أو لا يملك شيئاً منها . خلافاً لمن قام بأعماله الصالحة في الدنيا .

أعمال الإنسان رفيقه في عالم الآخرة :

ذكر المحدّث القمي (رضى)[4] : أنّ أحد شخصيات العرب حضر عند

---

(١) علم اليقين ـ ج ٢ ـ ص ٨٨٤ .
(٢) سورة الحاقة ، الآية : ٢٤ .
(٣) سورة الأنفال ، الآية : ٥١ .
(٤) نقل هذه الرواية المرحوم المجلسي ، والشيخ البهائي وآخرون .

الرسول (ص) وطلب منه موعظة تكون دليله الدائم في حياته ، فهو لا يتمكن من رؤية الرسول (ص) دائماً ، فقال له النبي (ص) : « اعمل ما شئت فإنك ملاقيه » . فإن عملت صالحاً كان رفيقك في القبر صالحاً ، وسيؤنسك في المحشر والجنة ، وإن عملت سوءاً حتى لو كان قليلاً ، فسيكون رفيقك في القبر طالحاً ، وسيرافقك في عالم الآخرة حتى يدخلك النار .

تذكرة :

ما دامت أعمالنا وأخطارنا باقية وستعود إلينا ، فلماذا نبيع العالم الباقي بالدنيا الفانية ؟ ونستبدل حياة الآخرة الخالدة ونعيم الجنة بثمن بخس ، بحياة زائلة قرنت سعادتها بالشقاء ولذّتها بالألم ؟ ولم نحرم أنفسنا من مجالسة رسول الله (ص) والأئمة (ع) بارتكابنا المعاصي والذنوب ؟ بل كيف نحرم أبصار قلوبنا من مشاهدة جمال الحق تعالىٰ ؟

آثار أعمال الإنسان :

لأفكارنا وأقوالنا وأعمالنا أثران :

أولهما : أثر في النفس ، فالأعمال الصالحة تترك أثراً حسناً في نفس فاعلها . والأعمال السيئة تنحدر بنفس فاعلها إلى حضيض الحيوانية .

ثانيهما : تعود هذه الأعمال إلينا يوم القيامة .

إِنَّمَا أَعْمَالُكُمْ رُدَّت إِلَيْكُم

فبعد الموت يتجسم كل عمل بصورته الحقيقية ويصير جليسنا .

عودة الأعمال للإنسان :

تجسم الأعمال في عالم الآخرة ومرافقة الأعمال المتجسّمة للإنسان في عالم ما بعد الموت ، كلاهما ، من آثار أفعالنا . والقرآن الكريم يبيّن هذه الحقيقة في قوله تعالىٰ :

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ

﴿ رَءُوفٌۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾[1] .

رؤية الأعمال :

إحاطة الذنوب للإنسان في يوم الحساب ، فضيحة كبرىٰ وحسـرات تلك اللحظات أكثر إيلاماً من حريق جهنم .

والأعمـال الصالحـة حين تحيط صاحبهـا يوم القيـامة بـالصور الجميلة ، ينطلق مسروراً يدعو أهل المحشر ليطّلعوا علىٰ صحيفة أعماله :

﴿ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴾[2] .

والآية الشريفة التالية تشير إلىٰ نفس المعنىٰ :

﴿ يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٦ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴾[3]

فالله تعالىٰ يقول في هذه الآية :

إن النـاس يخرجـون من قبورهم يـوم القيامـة ليُروا أعمـالهم وليس جزاء أعمالهم ، فلو كان المراد ذلك لقال: « ليروا جزاء أعمالهم » .

فالمقصود إذاً مشاهدة نفس الأعمال . يعني تجسم الأعمال بالمعنى الثاني وهو ما نبحثه الآن . وتتمة الآية تؤكد هذا المعنى أيضاً .

كلام إمام الأمة في الموضوع :

كثيراً ما كان أستاذنا الكبير قائد الثورة الإمام الخميني العظيم ، يقرأ هذه الآيات الشريفة وينقل عن الإمـام الصادق (ع) قـوله: « ليـروا أعمالهم » من المحكمات .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٣٠ .
(٢) سورة الحاقة ، الآية : ١٩ .
(٣) سورة الزلزلة ، الآيات : ٦ ـ ٨ .

فلو عمل الإنسان سوءاً حشر بالصورة المناسبة لعمله ولو عمل صالحاً حُشر نورانياً مكرماً . فيوم القيامة تابع لعمل الإنسان ، فتبيضّ فيه وجوه وتسودّ أخرىٰ .

من كانت أعماله سيئة كالهندوس

حشر يوم العرض

ومن كانت أعماله كالورد والسوسن

قرن عيناه بالربيع

يوم تبيض وتسود وجوه

كامتياز الترك عن الهنود

وما كان مكنوناً ظهر بكل وضوح

وافتضح الخائنين[1]

حضور الأعمال :

سنشير في بحثنا إلى الآية ٤٧ من سورة الأنبياء :

﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾

التي تبيّن دقة الحساب في يوم الجزاء ، حيث جاء فيها : لو كان عمل الإنسان بمقدار حبة الخردل لأتينا به يوم الجزاء وحاسبناه عليه ، وعلمُنا يكفي عن باقي الحاسبين فتبيّن أن العمل حسناً كان أم سيئاً ومهما كان قليلاً سيحضر في الحشر . هناك آيات كثيرة تثبت ما نقول :

الآية ١١٠ من سورة البقرة

﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ۗ ﴾

الآيتان ١٨١ ـ ١٨٢ من سورة آل عمران

﴿ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ

---

(١) مولوي .

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ .

الآية ٢٨١ من سورة البقرة

﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

من المناسب جداً التفكر والتدبر في هذه الآيات الإلهية الشريفة ، فالدنيا فانية ويوم الرحيل آتٍ لا محالة ، والرحيل يستلزم زاداً ، والزاد هو ما نهيؤه في حياتنا الدنيا لهذا السفر :

﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾[1]

وكل ما نرسله الآن نجده في ذلك اليوم محضراً .

﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾[2]

---

(١) سورة الرعد ، الآية : ٢٦ .

(٢) سورة الحج ، الآيات : ١٩ ـ ٢١ .

الدرس التاسع

دفع شبهة العمل والثواب

اتضح من الدروس السابقة سعي الإنسان في الدنيا يُعيِّن شكل حياته الأخروية ، ومثل علاقة الدنيا بالآخرة كعلاقة الزراعة بالحصاد ، لهذا تسهل الإجابة علىٰ الأشكال الذي ينكر التناسب بين عمل الإنسان والثواب والعقاب الإلهي .

فالانصراف عن مراعاة أحكام الشارع المقدّس ، كالصلاة والصوم ، يشكل ملكة إنسانية تكوّن بدورها هوية الإنسان وحقيقته الدنيوية التي سيظهر بها يوم القيامة .

كما أن أعمال الإنسان ستتجسم في الآخرة . فلا انفصال إذن بين العمل والجزاء . فكلاهما حقيقة واحدة ، ولا ينبغي فهم العلاقة بينهما كقانون أو اتفاق ليبحث عن التناسب بينهما ، بل هما كالعلّة والمعلول .

عينية العمل والجزاء :

من الطبيعي أن شرب السم علّة لموت الإنسان ، ولا إشكال على انعدام التناسب بين العلة والمعلول ، ولا مَن يبغي التناسب بين لحظة اشتباه وشرب قليل من السم وبين النتيجة ـ الموت ـ وهكذا فإنَ مثل « العمل » والجزاء كمثل شرب « السم » و« الموت » .

وبحث تجسيم الأعمال أرقىٰ من العلّة والمعلول . فهو بحث « العينيّة » أي أن « العمل » و« الجزاء » أحدهما عين الثاني .

«وإن كان خيراً فخيراً، وإن كان شراً فشراً»[1].

فكل ما يرسله الإنسان من الدنيا يجده أمامه في عالم الآخرة. العمل والجزاء كالوجود الذهني والوجود الخارجي. فهذه الدنيا كالوجود الذهني وعالم الآخرة كالوجود الخارجي. وهذان الوجودان يمثلان حقيقة واحدة، والفرق هو أن الوجود الذهني أضعف قليلاً من الوجود الخارجي فيتبيّن عدم صحة أصل الشبهة.

التوبة:

المسألة الثانية التي ينبغي ذكرها هنا هي مسألة التوبة وغفران الذنوب، فمن خلال الحديث عن العمل والجزاء تتشكل في الذهن شبهة عن كيفية محو التوبة للذنوب وخلاص الإنسان من تبعات معاصيه مع أن العمل والجزاء وجودان لحقيقة واحدة.

يستفاد من الروايات إمكانية الخلاص من نار جهنم وأفاعي وعقارب القبر وعذاب البرزخ ومقامع الحديد والأغلال والسلاسل والزقوم والحميم بالتوبة من الذنوب.

والقرآن يذكر في هذا الخصوص:

﴿.. يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾[2].

لا ينبغي للذنب مهما كان كبيراً أن يقنّط الإنسان من رحمة الله تعالىٰ، فالقرآن الكريم يقول:

﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[3].

---

(١) علم اليقين، الفيض الكاشاني (رض) ج ٢ ص ٨٨٤.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٨٧.

فمن تاب ورجع إلى ربه ، غفر الله له ذنوبه :

« التائب من الذنب كمن لا ذنب له »[1] .

نستنتج من هذا الحديث أن الله تعالىٰ يتجاوز عن سيئات التائب ، لكننا ذكرنا في موضوع تجسم الأعمال أن الذنوب تتجسم وتصاحب الإنسان في عالم الآخرة . هنا يأتي السؤال التالي : كيف ستكون الأعمال المتجسمة بعد التوبة ؟ هنا رأيان نشير إليهما .

رأي المرحوم الشيخ محمد حسين الأصفهاني (الكمباني) :

يقول المرحوم العارف الكمباني : يتم الانفصال بين التائب وذنوبه وتتركه أعماله السيئة المتجسمة وهو بالضبط منية المذنبين يوم القيامة التي لا تتحقق أبداً .

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾[2] .

يقول المرحوم المحقق الكمباني : تُحدِث « التوبة » فاصلاً بين الإنسان وأعماله السيئة بحيث لا تؤدي إلى عذابه في الآخرة . والكمباني يفهم الغفران بهذا المعنىٰ أيضاً .

كلام الإمام الخميني في التوبة وأثرها على الأعمال :

للإمام الخميني رأي آخر في التوبة فيقول :

إن التوبة تمحو الأعمال السيئة ، والذنوب التي يقترفها العاصون ، وماء التوبة يغسل صحيفة الإنسان السوداء . وبعبارة أخرىٰ ، إن التوبة تطفىء نار جهنم وتمحو الأعمال السيئة التي تتجسم يوم القيامة بصورة كلب وأفعىٰ وعقرب وزقوم وحميم وسلسلة من نار .

يبدو أن أستاذنا الكبير محق ، لأن القرآن الكريم يعد التائب بمحو ذنوبه . والمذنبون مصيرهم جهنم إن لم يتوبوا . فالتوبة تحرق صحيفة التائب

---

(١) وسائل الشيعة ج ١ ص ٣٥٨ : (٢) سورة آل عمران ، الآية : ٣٠ .

السوداء ، وتفتح لـه بدلهـا صحيفة بيضـاء ويستبدل الله تعـالىٰ أعمالـه السيئة بأعمال حسنة . والصحيفة البيضاء هي ثواب للتوبة .

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(١)

فالتوبة تبدل نار جهنم بالجنة ، والأغلال والسلاسل بأنهار وأشجار الجنة .

المؤمن لا يذهب إلى جهنم :

نقرأ في الروايات أن المؤمن لا يذهب إلى جهنم ما أمكن ذلك، بعد أن تطهره في الدنيا كفارات الذنوب كالفقر والمصائب والبـلايا والأمـراض . وإن كانت ذنوبه أكثر منها يُشدد عليه في قبض روحه ليغفر له ، ولو بقيت له ذنوب أخرىٰ تبددت بضغطة القبر وعذاب البرزخ ، وإن لم يفلح كل ذلك بتطهيره من ذنوبه تأتي شدائد وأهوال يوم القيامة لتفعل ذلك . ولو قصّرت هذه المقدمات عن الغفران ، ألقي في جهنم حتى يطهر من ذنوبه ثم يخرج من النار ويُطهـر بحوض الكوثر لينتقل إلى الجنة .

جهنم من الألطاف الإلهية الكبيرة :

من هنـا يتضـح كـلام استـاذنـا الكبيـر الإمـام الخميني ، « أنّ جهنم من الألطاف الإلهية الكبيرة » فهي ترفع الكدورات وتطهّر الإنسـان، وتعيد الهـوية الإنسانية إلى حقيقتها الأولىٰ بعدما تبدلت بفعل الذنوب إلى خنزير .

بالطبع يحدث ذلك للذين يتمتعون بـأرضية مسـاعدة وإلاّ فلن تكـون نار جهنم مطهرة ، وسيخلد فيها المذنبون .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾(٢)

---

(١) سورة الفرقان ، الآية : ٧٠ .

(٢) سورة النساء ، الآية : ١١٦ .

أثر التوبة في النفس :

كما أشرنا أن لأعمال الإنسان عدة آثار :

الأول : تجسم الأعمال في الآخرة بأحد المعنيين السابقين .

الثاني : الأثر الذي تتركه في النفس وهذا معناه أنّ إنسانيتنا تتسامىٰ أو تتسافل إلىٰ الحيوانية بفعل أفكارنا ونيّاتنا وأقوالنا وأعمالنا .

الثالث : أثر الأعمال والنيّات علىٰ قلوبنا ، فإما تصبح قلوبنا نورانية أو مظلمة . . . قال تعالىٰ :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾[1]

فلأنهم لم يهتموا بالأحكام الشرعية والصلاة والصوم ، تحجّرت قلوبهم فما عادت تسمع كلام الحق تعالىٰ ، أما العاملين بالأحكام الإلهية والساعين في حفظ بيت المال وخدمة الناس وإدخال السرور على قلب المسلمين فأولئك لهم قلوب نورانية نقية ، والقلب النوراني يكون محلاً لنزول الرحمة الإلهية .

الرابع : أثر العلّة والمعلول ، فسوء العاقبة يتعدىٰ المذنب ليشمل أهله . والقرآن يعتبر تقوىٰ الوالدين وصدقهم من أسباب حسن العاقبة .

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾[2]

نعم إن للتقوىٰ وشهادة الحق أثر في سعادة الأبناء . فبين ذنب الوالدين وعاقبته على الأبناء علاقة العلة والمعلول . فالنار التي يوقدها الوالدان تأتي على الأخضر واليابس لتحرقه :

---

(١) سورة الزمر ، الآية : ٢٢ .

(٢) سورة النساء ، الآية : ٩ .

﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ ﴾[1]

وخصام هامشي في جبهة القتال أو المدينة ، واستهزاء بمسلم . . . يتجاوز حريقه فاعله ليشمل الجميع . كذلك يعم حسن عاقبة الأعمال الحسنة الفاعل وأبناءه فأثر أعمال الخير لا يقتصر علىٰ الأب والأم بل يكون من أسباب سعادة أبنائهما أيضاً .

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٢٥ .

الدرس العاشر

« منازل المعاد »

يُستفاد من القرآن الكريم وروايات أهل البيت (ع) أن للمعاد منازل . أولهم ، الاحتضار الذي تنتزع فيه الروح من البدن . والمنزل الأخير في نهاية المسير ، يُنقل فيه المؤمنون إلىٰ الجنة ، والمذنبون إلىٰ النار .

المنزل الأول : الاحتضار؛

المنزل الأول هو الاحتضار ، وبالتعبير القرآني « سكرات الموت » . وهو لبعض الناس منزلاً كريماً ووقتاً مباركاً ، حيث يكون أمير المؤمنين علي (ع)، وأحياناً الأربعة عشر معصوماً (ع) سريرهم. ثم يظهر « ملك الموت » بصورة حسنة ويقبض روحهم برفق . ثم تحمل ملائكة الرحمة أرواحهم المطهرة إلى الملكوت الأعلىٰ ، وفي كل سماء يصلون إليها يستقبلهم سكنتها بالسرور والترحاب ، حتى تبلغ أرواحهم عرش الرحمن وتستقر عند الحضرة الربوبية ثم تعود إلى منزلها الأصلي .

وكما وردت في الروايات فإن خروج الروح كخروج الأريج من الزهرة . وبعد الموت سينعمون في جنة برزخية حتى يوم المحشر . وفي القرآن الكريم آيات كثيرة عن هؤلاء السعداء ، نشير إلىٰ بعضها : قال تعالىٰ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾[1]

(١) سورة فصلت ، الآيتان : ٣٠ ـ ٣١ .

فلا خوف من الموت علىٰ الذين ترسخت أشجار الإيمان والتوحيد في حدائق صدورهم ، بفضل أعمالهم الصالحة وباهتمامهم بالأحكام الشرعية وعلى الخصُوص الصلاة أول الوقت والنوافل وحفظ اللسان وكف الجوارح والصوم والزكاة والخمس والحج والجهاد .

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(١)

وفي الآيتين الشريفتين جاء بيان حالة احتضار المؤمن وما يحدث له بعد الموت . أما الآية الشريفة التالية فهي تصفُ حال المؤمنين .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾(٢)

هنا شُبّه المعقول بالمحسوس ، أي لو تمكنت كلمة « لا إله إلاّ الله » بواسطة العمل من قلب الإنسان لاستقر الإيمان في قلبه ومن كان كذلك صدرت عنه الصالحات والعبادات والحسنات على الدوام وبلا انقطاع وأصبح شغله الشاغل في كل آن اجتناب المحرمات والقيام بالواجبات والمستحبات ومساعدة الآخرين وقتال الكافرين . وخوفه الدائم من ارتكاب المعاصي ونار جهنم . عباداته ليست فصلية ، فهو يأنس بالقرآن ويختمه في شهر رمضان المبارك ، كما يتلوه ويتأمل فيه في الأيام الأخرىٰ ، وبما يتناسب وحاله . فقد امتدت جذور الإيمان عميقة في وجوده فباتت شجرته تؤتي أُكلها كلَّ حين .

كيفية احتضار المرحوم السيد ميرزا جواد ملكي تبريزي « قده » :

هناك مقاطع مرعبة ، وأوضاع خطرة تنتظر الإنسان أصعبها ساعة « الاحتضار » ولا يُستثنىٰ من ذلك إلاّ من هُدي إلى الصراط المستقيم

---

(١) سورة النحل ، الآية : ٣٢ . (٢) سورة إبراهيم ، الآيتان : ٢٤ ـ ٢٥ .

وأصبح الله تعالىٰ أكبر همّه . . . مثل هؤلاء يتعجلون لقاء معشوقهم ولا يعانون من الاحتضار .

ينقل أحد معارف المرحوم السيد ميرزا جواد ملكي تبريزي ، أن السيد دعاني يوماً إلى منزله ، وعندما أصبحت في خدمته كان قد استحم وخضب لحيته وتعطر واستلقىٰ بطمأنينة علىٰ فراش المرض منتظراً صلاتي الظهر والعصر ، ثم بدأ بقراءة الأذان والإقامة ثم قرأ دعاء التكبيرات الافتتاحية ، وحين وصل إلى تكبيرة الإحرام نطق لسانه بالجملة الشريفة « **الله أكبر** » وودّعت روحه المقدسة بدنه وحلقت إلى الملأ الأعلىٰ ومنزلها الأصلي .

احتضار الكافرين :

الاحتضار لحظة عصيبة على الكافرين . فقد خدعتهم الدنيا بغرورها فتأصلت جذور محبتها في أعماق وجودهم ، من هنا عظم وصعب استئصالها من قلوبهم . فعند الاحتضار لا يشاهد هؤلاء ملك الموت بصورته الحسنة والحقيقية، لأن المعاصي استولت على وجودهم فغرقوا في الدنيا .

جاء في الرواية أن إبراهيم (ع) طلب من الله تعالىٰ أن يريه شكل وهيئة ملك الموت عند قبضه أرواح الكافرين ، فجاءه الخطاب : « لا تستطيع تحمّل ذلك » . فقال (ع) : مع هذا فأنا راغب . فظهر « عزرائيل » (ع) على هيئة رجل أسود الوجه كريه الرائحة ، يغطي الشعر بدنه ، ثيابه سوداء ، تنطلق ألسنة اللهب من فمه وأنفه ، فأُغمي على سيدنا إبراهيم (ع) . ولما أفاق قال (ع) : لو لم يكن للكافرين غير أهوال مشاهدته لكفىٰ عذاباً[1] .

فعند قبض روح الكافر تحضر ملائكة العذاب عند سريره وبيدها الأسواط ، تضرب وجهه ورأسه ثم تقوم بنزع روحه بشدّة كأن شرايينه أخرجت من عينيه ، ومثلما يحدث لروح المؤمن ، ينطلق الملائكة بروح الكافر إلى السماوات لتجلس عند الحضرة الربوبية . لكن خلال مسيرها تظهر علىٰ حقيقتها في كل منزلة تصلها ، فمرة يراها أهل السماء كلباً ، ومرة خنزيراً

---

(١) بحار الأنوار ـ ج ٣ « نقل مضمون الحديث » .

وهكذا ، حتى تصل إلى الحضرة الربوبية ، ليأتي الزجر الإلهي طارداً لها من تلك الحضرة « إخسئي »(١) وبعد ذلك ترجع الروح إلىٰ منزلها الأصلي تذوق عذاب النار . قال تعالىٰ :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾(٢)

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾(٣)

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾(٤)

يستفاد من الآية الشريفة أنّ مَنْ لم تتأصل في قلبه كلمة « **لا إله إلا الله** » وهي حقيقة التوحيد، يبقىٰ ضعيفاً مهزوزاً ، ينهار أمام أبسط ابتلاء في الأنفس أو الأموال أو الثمرات .

وقد مثّل القرآن الكريم هذا الإنسان بالشجرة الخبيثة الذي نمىٰ وترعرع جسمه على المحرمات ، وترك الواجبات الإلهية ، فأصبح كتلة من النحس والشؤم لا تصدر عنه إلّا الأفكار والنيّات والأقوال والأعمال الشريرة .

رواية عن الاحتضار :

يُذكر أن الرسول (ص) حضر عند رأس شاب يحتضر، فقال له (ص):

---

(١) اخسأ : طرد . الاستعمال الأولي للكلمة بخصوص طرد الكلب . خسأت الكلب ، فخسأ أي زجرته مستهيناً . فانزجر وذلك إذا قلتُ له اخسأ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية : ٥٠ .

(٣) سورة الأنعام ، الآية : ٩٣ .

(٤) سورة إبراهيم ، الآية : ٢٦ .

قل « لا إله إلا الله » فما استطاع الشاب تحريك لسانه ، فأدرك الرسول (ص) أن الذنوب قد قيّدت لسانه ، فطلب إحضار والدته، فسألها إن كانت راضية عن ولدها . فأجابت الأم بأنها غير راضية عنه لما سبب لها من أذىٰ كثير . فطلب منها الرسول أن تعفو عنه وترضىٰ منه لأنه يعاني سكرات الموت ، فنفّذت طلب الرسول (ص) بالعفو والصفح عن ولدها . بعدها أخذ النبي (ص) يلقن الشاب « لا إله إلا الله »، فإذا به يردد تلك الجملة الشريفة فسأله الرسول (ص) ماذا ترىٰ ؟ قال : يا رسول الله ، أرىٰ شخصاً قبيحاً مرعباً أسوداً وخشناً يضغط على عنقي . فقال له الرسول (ص) : قل:

« يا من يقبل اليسير ويعفو عن الكثير اقبل مني اليسير واعف عن الكثير ، إنك أنت الغفور الرحيم » .

فردد الشاب ذلك الدعاء عدة مرّات ثم سأله (ص) : الآن ماذا ترىٰ ؟ قال : لقد ذهب ذلك الرجل المخيف : وجاء آخر طيب الرائحة ، حسن الصورة ، يعطف قلبه عليّ ، يعاملني بلطف وكرم . وطلب منه الرسول (ص) أن يستمر في الذكر ، حتى فارق الحياة .

حضور أمير المؤمنين عند فراش المحتضر :

عند احتضار الإنسان سواءاً كان مؤمناً أو كافراً أو منافقاً فإن أمير المؤمنين يحضر عند فراشه . لكن حضوره يكون بصورة مختلفة ، فمرة يظهر عطوفاً ، لطيفاً وأخرىٰ قاهراً غاضباً . . . فهو (ع) يظهر للمؤمنين ليعينهم ويرفق بهم ، وللكافرين غاضباً قاهراً . فتعساً لمن كان أمير المؤمنين (ع) غير راضٍ عنه ساعة الموت ، فسيسلب الشيطان في هذه اللحظات الأخيرة إيمانه ليخرج من الدنيا بلا إيمان .

ملكة الإيمان عند الاحتضار :

يقول مضمون إحدىٰ روايات كتاب « جامع الأخبار » أنّ الله تعالىٰ يُنزِّلُ البلاء إلىٰ الأرض على الذين يهجرون « المنبر والمحراب » فيخرجون من الدنيا بلا إيمان . حقاً إنها من أعظم مصائب البشر ، فلو أقصىٰ الإنسان من حياته الدور الأساس للقرآن وأئمة الدين والعلماء والمساجد وقطع الوشائج التي

تربطه بها لتزعزع إيمانـه ولـم يستقر قلبـه . ومَنْ لم يتحصَّن بالـولاية والقـرآن والعترة الطاهرة وأصبح قلبه خالياً من ملكة الإيمان . كان هدفاً سهلاً لمصائد الشيـطان وحبائله وسقط في شبـاكه ، وحين الاحتضـار سيسلب الشيطان منـه إيمانه ، وبما يناسب الحال ، ليناً ورفيقاً تارة ، ومرعباً ومخـوفاً تـارة أخرىٰ ، وبالوعود الكاذبة تارة ثالثة ، ليغمض عينيه عن الدنيا فاقد الإيمان .

أمـا المتحصنـون بـولايـة الإمـام علي (ع) ، والمحفـوفـون بـرعـايته وعنايته (ع) ، فأولئك لا يقعون أبداً في شباك الشيطان الذي يئس منهم .

الدرس الحادي عشر

دفع شبهة

هناك شبهة تتعلق بحضور أمير المؤمنين (ع)عند فراش المحتضر ، يقول مضمونها :

كيف يمكن لأمير المؤمنين أن يحضر وفي آن واحد عند آلاف المحتضرين ؟ بالطبع يرد هذا الإشكال بشأن ملك الموت أيضاً . لهذا أجيب . في كتبنا الروائية عن الإشكالين معاً . نحن نقرأ في الروايات أن « ملك الموت » قال للرسول الأكرم (ص) مشيراً إلى لوح كان في يده « الدنيا عندي كهذا اللوح » . فيظهر من هذه الرواية وأمثالها أن تشبيه الدنيا بلوح ، دليل على إحاطة وتسلط « ملك الموت » على الدنيا . وقد عُبِّر في الفلسفة عن التسلط والإحاطة « بالسعة الوجودية » فلا يحدهما حدّ معين ولوجودهما إشراف تام وكامل على عالم الوجود . أي أنهما حاضران في كل عالم الوجود بالقدرة الولائية المفوضة لهما من الله تعالىٰ .

القرآن والروايات يثبتان القضية :

جاء في تفسير الآية الشريفة :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾(١)

إنّ المراد بالأمة الوسط ، هم الرسول (ص) وأهل البيت (ع) الذين

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٤٣ .

سيشهدون يوم القيامة بنفع أو بضرر الإنسان .

إذاً :

١ ـ من المُسلَّم حسب رأي الشيعة أن هذه الآية متعلقة بشهادة الأئمة الأطهار (ع) يوم القيامة .

٢ ـ سيشهد أمير المؤمنين (ع) يوم القيامة علىٰ أمرٍ كان حاضره وناظره . فالقبول بالشهادة فرع للحضور والنظر حسب العرف والعقل والشرع .

نستنتج من المقدمة أعلاه حضور أمير المؤمنين (ع) عند فراش جميع المحتضرين .

نقرأ في الآية التالية التي تُعتبر خطاباً ربانياً للرسول (ص) :

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1]

يستفاد منْ هذه الآية أيضاً أن رؤية الرسول (ص) والمؤمنين للأعمال دليل علىٰ تسلّطهم علىٰ عالم الوجود . فإحاطة أمير المؤمنين (ع) الكاملة بعالم الوجود ومشاهدته لجميع الأعمال هي نتيجة لامتلاكه للسعة الوجودية ، من هنا يكون توجه علي (ع) للمحتضر هو عين حضوره .

كذلك جاء في الرواية التي يخاطب فيها أمير المؤمنين (ع) حارث الهمداني ، إن الكافرين والمؤمنين يرونه عند الموت . كما أن ميكائيل وعزرائيل وإسرافيل وجبرائيل يمتلكون هذه السعة الوجودية . حيثُ أشار الرسول (ص) أنه شاهد جبرائيل عدة مرات بصورته الحقيقية مُطْبِقاً على الشرق والغرب ، وهي إشارة إلى السعة الوجودية .

الأئمة (ع) واسطة الفيض :

من المسلّمات الفلسفية وجود واسطة للفيض ، وفي الفلسفة غير الإسلامية

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ١٠٥ .

يُعبر عن واسطة الفيض بالعقول العشرة . والفلاسفة المسلمون الشيعة يسلمون بأن واسطة الفيض بين الله تعالىٰ والخلق هم المعصومون الأربعة عشر (ع) . فقدرتنا على السمع والنظر والقتال في جبهات الحق ليست إلّا الفيض الواصل إلينا بواسطة الأئمة (ع) ، والواسطة الفيضية دليل آخر على سعتهم الوجودية .

نسبة قبض الروح لله تعالىٰ والملائكة :

ينسب القرآن الكريم في بعض الآيات قبض الروح إلى الله تعالىٰ :

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا . . . ﴾[1]

﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ . . . ﴾[2]

وفي بعض الآيات ينسب ذلك إلى الملائكة :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾[3]

جواب الأئمة (ع) :

فقد سُئل الأئمة (ع) عن التعابير القرآنية المختلفة والمتناقضة والظاهرة بخصوص قبض الروح ، فكان مضمون جوابهم ومنهم الإمام الصادق (ع) :

« وُكِّل ملك الموت بإذن الله تعالىٰ على قبض الأرواح ، وهو لا يأتي لقبض الأرواح لوحده ، إذ ترافقه ملائكة الرحمة عند قبض أرواح المؤمنين ، وملائكة الغضب والعذاب الإلهي عند قبض أرواح الكافرين، وعزرائيل بعد أن يقبض علىٰ الروح يعطيها لإحدىٰ هاتين المجموعتين . فإن نسبنا قبض الروح لله تعالىٰ كان صحيحاً ، لأن ملك الموت يقبض الروح بأمر من الله تعالىٰ ، وإن نسبنا ذلك لملك الموت كان صحيحاً أيضاً ، فهو صحيح إذن إلى الملائكة التي ترافق ملك الموت » .

ومن الناحية الأدبية أيضاً ينسب الفعل حيناً إلى الفاعل القريب ، وحيناً إلى

---

(١) سورة الزمر ، الآية : ٤٢ .
(٢) سورة السجدة ، الآية : ١١ .
(٣) سورة الأنعام ، الآية : ٦١ .

الفاعل البعيد ، وحيناً آخر إلى الاثنين معاً . ففي قصة الخضر (ع) وموسىٰ (ع) حيث كان يُفترض أن يتعلم موسىٰ (ع) من الخضر (ع) ليتكامل ويزداد علماً ، مع أن موسىٰ الكليم كان رسولاً من أولي العزم ، وما كان الخضر أعلم منه . نلاحظ في سورة الكهف أنه بعد قبول الخضر باصطحاب موسى (ع) سارا معاً ، وفي أثناء الطريق أحدث الخضر (ع) خرقاً في السفينة ، وقتل شاباً لا ذنب له ، وأقام جداراً كان يريد أن ينقض ، وحين اعترض موسىٰ (ع) على أفعاله جاء رد الخضر (ع) :

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾[١]

---

(١) سورة الكهف ، الآيات : ٧٩ ـ ٨٢ .

الدرس الثاني عشر

« عالم البرزخ »

البرزخ لغةً يعني الحاجز والحد بين شيئين . وقد اصطلح على ما بين الموت والقيامة . وعالم البرزخ عالم بين « الدنيا » و« الآخرة » . والقبر هو أول منازل عالم البرزخ .

البرزخ في بعض الآيات القرآنية :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾(١)

وفي سورة « يٓس » بعد نقل حادثة انطاكية جاء أن المعاندين بعد أن قتلوا حبيب النجّار ، قال له تعالى ادخل الجنّة :

﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾(٢)

من الواضح أنّ « الجنّة » المقصودة هنا هي « جنّة » عالم البرزخ ، والتي عبّرت عنها الرواية بـ « روضة من رياض الجنّة » . وهو ما تشهد عليه الآيات التالية :

---

(١) سورة المؤمنون ، الآيتان : ٩٩ ـ ١٠٠ .

(٢) سورة يس ، الآيتان : ٢٦ ـ ٢٧ .

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾[1]

ورغم أنّ عذاب البرزخ للروح لكنه يؤثر في الجسم أيضاً ، لشدّته .

تصور عالم البرزخ :

إدراك حقيقة عالم البرزخ والحياة بعد الموت ، غير ممكنة لنا ، كما الجنين في رحم أمه لا يمكنه إدراك حقيقة الدنيا . وكل ما عندنا عن البرزخ هو الآيات القرآنية وروايات أهل البيت (ع) . ولتقريب معناه إلى الذهن نستعين بالتشبيه ، فنشبه « عالم البرزخ » بـ« عالم النوم » رغم بُعد الشبه ، فروح الإنسان تلتذ بما يشاهده في منامه من مناظر جميلة ، فالحلم في النوم شأن الروح ، تسري هذه اللّذة الروحية إلى الجسم فيلتذ بدوره . وهكذا لما يكون حلم الإنسان مخيفاً يرتعد الجسم بعد ارتعاب الروح .

فيحدث أن يلاحظ الإنسان حين يرىٰ في المنام آخر يضربه أو حيواناً كاسراً يُطارده ، ينهض من نومه وقد ابتل جسمه عرقاً ، وفرائصه ترتعد خوفاً ، في وقت كانت الروح ـ لا الجسم ـ تتلقىٰ الضربات أو يطاردها الحيوان الكاسر .

المنزل الأول للبرزخ :

ملك الموت ينزع الروح من البدن ، ويأخذها عند الحضرة الربوبية ، ثم يعود بها إلىٰ القبر ، وهي المرحلة الأولىٰ لهذه المنزلة من منازل البرزخ ، وهي ما عُرفت عرفاً بـ« ليلة القبر الأولىٰ » وقد أكدّت الروايات بأن القبر إمّا روضة

---

(١) سورة الوقعة ، الآيات : ٨٣ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٢ ـ ٩٥ .

من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران .

« القبر إمّا حفرة من حفر النيران أو روضة من رياض الجنة »[1] .

سؤال منكر ونكير :

وبعد عودة الإنسان من الحضرة الربوبية، يأتيه ملكان اسمهما « منكر » و « نكير » يسألانه عن التوحيد والعدل والنبوة والإمامة والمعاد . وهما للكفار مرعبان ، فكما تصورهما الروايات ، أصواتهما كالرعد القاصف ، وأبصارهما كالبرق الخاطف ، وجاء في بعض الروايات أن الأمير (ع) يحضر أيضاً ، وهو ما تطرقنا إليه سابقاً .

ضغطة القبر :

من الأمور المسلمة الأخرى « ضغطة القبر » وجاء في الروايات أن عذابها يشمل النمّام وسيء الخلق وكثير الكلام والمتهاون في أمر الطهارة . وما دمنا مبتلين بهذه الأعمال السيئة ، فلا مفر من ضغطة القبر التي تضعف وتشتد تبعاً لضعف وشدة ذنوبنا .

قصة معاذ :

قصة معاذ وكلام الرسول (ص) عنه تشهد على ما نقول . فقد أشار النبي الأكرم (ص) إلى أنّ الأرض امتلأت بالملائكة التي جاءت لتشييع جنازة معاذ . وحين وضعوه في القبر تهشمت عظامه من شدّة ضغطة القبر ، لأنه كان سيء الأخلاق مع أهله . وتذكر بعض الروايات أن ضغطة القبر تفري لحم الإنسان وتطحن دماغه وتذيب دهونه لشدتها . وتبقى ضغطة القبر الأشد من نصيب النمّامين الذين يوقعون بين الناس .

ثواب وعقاب البرزخ :

تبيّن أن من يجيب على أسئلة « منكر ونكير » سيحيى في « الجنة

---

(١) وفي الأخبار العامة : إذا وضع الميت في القبر أتاه ملكان أسودان أصواتهما كالرعد القاصف ، وأبصارهما كالبرق الخاطف يخرقان بأنيابهما .

علم اليقين ـ فيض الكاشاني ج ٢ ص ٨٦٦ .

البرزخية » حتى قيام الساعة . أما المذنب فسينعقد لسانه ، وستُنسيه أعماله السيئة كلمة : « لا إله إلّا الله » وسيضرب بالسياط كما أشرنا ويصبح قبره حفرة من حفر النار ويبقى يذوق العذاب البرزخي حتى يوم القيامة .

مدّة البرزخ :

مدّة البرزخ والبقاء في القبر تبدو مريحة وقصيرة للمؤمنين . لكنها تبدو طويلة جداً ومصحوبة بالعذاب لغير المؤمنين . وهو ما يستفاد من الرواية المنقولة عن عيسىٰ (ع) . فقد أحيا (ع) بإذن الله شاباً كان قد مات للتو . إلّا أن الشاب لما ظهر عليه من تعب وانكسار وبدىٰ وكأنه توسد التراب منذ سنوات . فسأله المسيح (ع) عن زمان وفاته ، فأجابه : قبل آلاف السنين. ثم سأله (ع) عما جرىٰ له بعد موته ، فقال : بعد أن أدخلوني القبر جاءني « منكر ونكير » ووجها إليَّ أسئلة عجزت في الإجابة عنها ، فبدأت تنهال عليّ السياط واشتعلت النيران في قبري وما زلت أحترق حتى الآن .

ثم أحيا (ع) بإذن الله أيضاً شيخاً فارق الحياة قبل سنوات طويلة ، واندثر قبره ولم يعد له أثر . فعاد شاباً نشطاً جميلاً . فسأله عيسىٰ (ع) منذ متى وأنت تتوسد التراب ؟ فأجاب الشيخ ، للتو . وحين أودعت القبر جاءني « منكر ونكير » فأجبت على الأسئلة التي وجهوها لي فأصبحت في روضة من رياض الجنة ، وقد كنت هناك حين احضرتني .

تقريب نسبة المدة البرزخية إلى الذهن :

طالما لاحظتم أن المريض يحس بطول فترة معاناته للألم الشديد ، كأن يشعر بطول مدة الليل حتى انجلاء الصبح وفي المقابل نجد الإنسان المسرور الذي أصابه خير وفرح يحس بقصر المدة وكأن الزمن يمر عليه بسرعة . فتصبح الأيام لديه لحظات ، وهذا ما يشير إليه المثل العربي المعروف :

« لحظة الفراق سنة وسنة الوصال لحظة » .

فائدة « الصبر » في عالم البرزخ :

للصبر في الدنيا ثماره في عالم البرزخ ، حيث نقرأ في الروايات أن أعمال الإنسان كالصلاة والصوم والخمس والصبر والإحسان للناس ستأتي إلىٰ قبره .

فينتظر الصبر جانباً ليرىٰ ما يمكن لباقي الأعمال أن تقدمه لصاحبها في قبره ، وهل ستُنجيه أم لا ؟ وحين يأتي « منكر ونكير » يقول الصبر لباقي الأعمال : « دونكم صاحبكما » . فإن لم تستطيعوا حفظه اتركوه لي .

وللصبر مصاديق كثيرة منها : الصبر على الفقر ، تحمّل رفيق السوء ، الصبر علىٰ المعصية والصبر علىٰ العبادات صبر كل من الرجل والمرأة على أخلاق الزوج السيئة . وأكثرها فعالية في البرزخ هو الصبر على المعصية . قال تعالىٰ بحق الصابرين :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾[1]

الصبر علىٰ المعصية يكون حينما تتهيأ مقدمات الذنب وتميل النفس إليه ، فيصبر الإنسان ولا يرتكب الذنب . ويستعين بالله تعالىٰ منه .

أثر محبة أهل البيت (ع) :

الملاذ العاصم من عذاب وأهوال القبر هو محبة أهل بيت العصمة والطهارة (ع) . فمثلاً يشير الإمام الرضا (ع) أنه يزور زائره في ليلته الأولىٰ في القبر . وينقل المرحوم المحدث القمي في كتاب مفاتيح الجنان هذه القصة :

كان رجل صالح فاضل بمدينة يزد يشتغل بنفسه ومواظب لعمارة قبره يبيت الليالي بمقبرة خارج المدينة تعرف « بالمزار » وفيها جملة من الصالحين ، وكان له جار نشأ معه منذ الصغر .

توفي هذا الجار ودفن في تلك المقبرة قريباً من المحل الذي كان يبيت فيه الرجل الصالح . بعد شهر من وفاة الجار ، جاءه في المقام في زي حسن ، وعليه نضرة النعيم فتقدم إليه الرجل الصالح سائلاً : إنني أعلم باطنك وظاهرك ، إذ لم تكن ممن يحتمل في حقه حسن الباطن ، ولم يكن عملك ،

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٥٧ .

مقتضياً إلّا للعذاب والنكال ، فبم نلت هذا المقام ؟ ! فأجابه قائلاً : نعم الأمر كما قلت ، كنت مقيماً في أشد العذاب من يوم وفاتي إلىٰ يوم أمس ، حيث توفيت فيه زوجة الأستاذ أشرف الحداد ودفنت في هذا المكان . . . وقد زارها ليلة دفنها ولثلاث مرات أبو عبد الله الحسين (ع) ، وفي المرة الثالثة أمر برفع العذاب عن هذه المقبرة فشملتني هذه النعمة وسعة العيش . فانتبه الرجل الصالح متحيراً ولم يكن يعرف الحداد ، فسأل عنه ووجده وطلب منه معرفة أعمال زوجته الحسنة ، فقال له إنها كانت مواظبة علىٰ زيارة عاشوراء ، ففهم سر تلك الزيارة التي قام بها الإمام الحسين (ع) لتلك المرأة في أول ليلة لها في القبر .

عالم البرزخ وحق الناس :

« حق الناس » من الأمور الخطرة جداً والمسببة للعذاب الشديد في القبر وعالم البرزخ . ففي أول ليالي القبر يأتي كل ذنب ليسبب للإنسان عذاباً متناسباً معه . جاء في كتاب « دار السلام » للمرحوم النوري أستاذ المرحوم الحاج الشيخ عباس القمي : إن أحد العلماء رأى في المنام والده بعد الموت وهو غير مرتاح ، فاستفسر منه عن السبب وهو العالم الذي خدم الإسلام ، فقال أبوه : نِعْمَ المكان الذي أنا فيه ، لكن الويل من حق الناس . فسبب عدم راحتي هو دين عشرة تومانات لفلان ، يقول الابن ذهبت إلى الدائن وسألته هل كان أبي مدين لك ؟ قال : نعم ، قلت : فلماذا لم تأتِ تطلب حقك ؟ قال : خشيت أن تتهمني بالكذب ، إلّا أني غير راضٍ عن أبيك لأنه لم يوصِ بذلك .

كرامة الناس :

كرامة الناس أهم من حق الناس . سُئل أحد العلماء الكبار عن حالِه بعد الموت لما حضر في المنام ، فقال في أحسن حال ، لكن عقرباً التصق بإصبع رجلي يلسعني في كل آن . ولما سُئل عن السبب . قال : آه . . . آه . . . من رمية اللسان .

نعم رمية اللسان وإراقة ماء وجه الغير والسخرية من الآخرين ، تصبح في

البرزخ عقارب تلتصق في عين ورجل ويد ولسان مقترفها وتظل تؤذيه حتى يوم القيامة .

من هنا حمّل الإمام الصادق (ع) شيعته مسؤولية البـرزخ حتى لو كـانت شفاعة أهل البيت (ع) من نصيبهم يوم القيامة .

الدرس الثالث عشر

النفخ في الصور

ورد في القرآن الكريم أن « إسرافيل » ينفخ في الصور فيموت كل من في السمٰوات والأرض إلاّ من شاء الله تعالىٰ ، وبعد مدة لا يعلم مقدارها ، يُنفخ في الصور مرة أخرىٰ فإذا هم قائمون من قبورهم ينتظرون في صف المحشر .

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾[1]

وهناك الكثير من نظائر هذه الآية في القرآن الكريم ، مثلاً في سورة (يس) عُبِّر عن « النفخ في الصور » بـ « صيحة واحدة » .

معنىٰ النفخ في الصور :

يظهر من الآيات والروايات أن « إسرافيل » الموكل بالنفخ في الصور ، سينفخ فيه ليموت كل الأحياء ، ثم ينفخ فيه أخرىٰ فيبعثوا من جديد . ولكن ربما كان للنفخ في الصور معنىٰ كنائي . فيكون النفخ في الصور كناية عن الإيقاظ وطلب التهيؤ والاستعداد . فمن المتعارف عليه استخدام البوق والطبل لهذه الأمور ، ولعلّ معنّاه خطاب إسرافيل للخلائق بقوله : « موتوا » فيموتون بإذن الله . ثم يقول مرة أخرىٰ : « قوموا » فيقومون . أي يمكن أن يكون المراد من النفخ القول[2] .

---

(١) سورة الزمر ، الآية : ٦٨ .

(٢) يطلق في الاصطلاح الفلسفي على المرحلة الثانية من النفخ في الصور بـ (كن رحماني) .

كيفية النفخ :

يستفاد من الآيات وروايات أهل البيت (ع) أن النفخ في الصور من مسلّمات الإسلام . هناك رواية في تفسير علي بن إبراهيم (رض) نقلها العلامة المجلسي عليه الرحمة أيضاً في المجلد السادس من كتاب « البحار » يقول الراوي :

حين تشرفت بزيارة الإمام الرابع (ع) أشار إلى أن الله تعالىٰ يأمر « إسرافيل » حين تحين الساعة بالنفخ في الصور ، فينفخ فيه ويموت كل ما في عالم الوجود إلّا إسرافيل نفسه ثم يطلب منه الله تعالىٰ تسليم روحه إلى خالقها ، بعد ذلك لا يبقىٰ في الوجود غير الله تعالىٰ فيقول سبحانه :

﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾(١)

ثم يُحيي الله تعالىٰ إسرافيل ويأمره بالنفخ مرة أخرى . . . فتقوم الخلائق كلها ، وقد قامت القيامة وجاءت الخلائق للحساب في الحضرة الربوبية .

يقول الراوي : لما وصل الكلام إلى هنا شرع الإمام (ع) بالبكاء .

« إحياء الموتىٰ » :

قلنا أنه يتم إحياء الموتىٰ في النفخة الثانية في الصور ولعلّ الآية الشريفة :

﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ . . . ﴾(٢)

تشير إلى هذا المعنىٰ وهو أن الإماتة الأولىٰ انتقال من الدنيا إلى عالم البرزخ ، والإحياء الأول يكون للبرزخ ، والإماتة الثانية تحدث عند نفخة الصور الأولىٰ ، والإحياء الثاني يحدث عند نفخة الصور الثانية حيث يفهم من القرآن الكريم أنه يتم إحياء العالم أي عالم الوجود بعد هذه النفخة .

﴿ . . . إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾(٣)

---

(١) سورة غافر ، الآية : ١٦ .

(٢) سورة غافر ، الآية : ١١ .

(٣) سورة الشورى ، الآية : ٥٣ .

يوم الحشر في الآيات القرآنية :

نقرأ في القرآن الكريم :

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾[1]

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾[2].

وهو يوم عسير على غير المؤمنين .

﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾[3]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾[4] .

[illegible] القرآن أن مدة يوم المحشر خمسين ألف سنة :

﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾[5]

لكنه كما أوضحنا سابقاً عن نسبية طول وقصر المدة ، كذلك يوم القيامة لا يبدو طويلاً للمؤمنين ، وهو ما نستفيده مما نقله صاحب مجمع البيان في ذيل الآية الشريفة ، حيث سُئل الرسول (ص) عن طول يوم المحشر ،

---

(١) سورة النبأ ، الآية : ١٨ .

(٢) سورة الزلزلة ، الآية : ٦ .

(٣) سورة المدثر ، الآيات : ٨ ـ ١٠ ، وهو للمؤمنين يوم أمن وطمأنينة . ﴿ من جاءَ بالحسنة فلَهُ خيرٌ منها وهم من فزعٍ يومئذٍ آمِنون ﴾ سورة النمل ، الآية : ٨٩ .

(٤) سورة الحج ، الآيتان : ١ ـ ٢ .

(٥) سورة المعارج ، الآية : ٤ .

فبيّن (ص) أنه للمؤمنين بمقدار إقامة صلاة واحدة .

مواقف يوم القيامة :

يستفاد من القرآن الكريم والروايات الشريفة أن هناك مواقف كثيرة تنتظرنا يوم القيامة . فقد جاء في القرآن الكريم ذكر خمسين موقفاً ، طول كل منها ألف سنة . يعني سنحاسب في خمسين محلاً ، وتقول بعض الروايات سبعين موقفاً . يتضح من هذا أن المواقف يوم القيامة على قسمين :

١ ـ القسم الأول : قبل الحساب .

٢ ـ القسم الثاني : بعد الحساب .

حيث تبيّن الروايات أن من تمت مُساءلتهم عند الصراط سوف يُسألون مرة أخرىٰ عن ولاية أمير المؤمنين (ع) وعن الصلاة وعن حق الناس[1] .

أولياء الله يبكون خوفاً من المواقف :

يقول « علي بن حاتم » ذهبت عند معاوية بعد استشهاد أمير المؤمنين (ع) ، فسألني معاوية : أين أبناءك ؟ قلت : استشهدوا مع علي (ع) في معركة صفين ، فقال : لم يُنصفك ، حيث بقي أولاده ومات أولادك! فبكيتُ وقلت : أنا لم أنصف مولاي علي (ع) ، لأنه استشهد وبقيتُ أنا حياً . فسألني معاوية : كم آلمك رحيل علي ؟ قلت : كالأم التي يموت طفلها في حجرها . ولما رأى معاوية ثباتي (والحديث لعلي بن حاتم) قال : اذكر إحدى فضائل علي (ع) قلت : كان مولاي متواضعاً جداً لكنه عظيم الهيبة ، فحين يجلس معنا تنعقد ألسنتنا وتنحبس أنفاسنا في صدورنا ، بينما كان أمير المؤمنين (ع) يلتف على نفسه كالحية في منتصف الليل ، متأوهاً من قلة الزاد ووحشة الطريق وطوله فيكثر في البكاء[2] .

---

(١) تحدثنا بالتفصيل عن حق الناس في كتاب « الجبهة والجهاد الأكبر ». [أو خصال الجهادين طبع بيروت ، دار الرسول الأكرم (ص)]المترجم .

(٢) تحدثنا عن خوف وبكاء أولياء الله تعالىٰ من يوم القيامة . . . في كتاب « الجبهة والجهاد الأكبر » و « أخلاق القيادة » .

المواقف الصعبة :

وردت أقوال كثيرة عن أسئلة المواقف ، كما لم تُبيّن كل المواقف في الروايات . لكن الواضح وجود ثلاث مواقف عظيمة إن اجتازها الإنسان بسلام تمكن من اجْتياز باقي المواقف .

وهذه المواقف هي :

١ - موقف أهل البيت (ع) :

وهو أصعب المواقف ، حيث يسأل الإنسان عن حبه لأهل البيت (ع) وولائه لهم . فإن أجاب عن الأسئلة نجح في الامتحان الأول .

«لا تزول قدم عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه ؟ وشبابه فيما أبلاه ؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ؟ وعن حبنا أهل البيت »[١] .

وقد نقل عن الزمخشري ، وفخر الرازي وهما من كبار علماء أهل السنة في ذيل آية « المودة » في سورة الشورىٰ هذه الأحاديث :

« ألا ومن مات على بغض آل محمد (ص) مات كافراً »[٢] .

« ألا ومن مات على بغض آل محمد (ص) لا يشمُ فيه رائحة الجنة »[٣] ..

« ألا ومن مات على حب آل محمد (ص) مات شهيداً . ألا ومن مات على حب آل محمد (ص) مات تائباً . ألا ومن مات على حب آل محمد (ص) بشّره ملك الموت بالجنة »[٤] .

---

(١) خصال الشيخ الصدوق .
(٢) التفسير الكبير ، للفخر الرازي ج ٢٧ ص ١٦٦ .
(٣) المصدر السابق نفسه .
(٤) المصدر السابق نفسه .

٢ ـ موقف الصلاة :

جاء في الحديث الشريف :

« أول ما يحاسب به العبد الصلاة ، إن قبلت قبل ما سواها وإن رُدَّت رُدَّ ما سواها »[١] .

لما حضرت الوفاة الإمام الصادق (ع) دعا جميع أهله وحدثهم بأمر مهم قائلاً :

« لا ينال شفاعتي من استخف بصلاته ، ولا يرد عليّ الحوض لا والله »[٢] .

٣ ـ موقف حق الناس :

ولعله الموقف الأكثر تعقيداً من الموقفين السابقين حيث يُسأل فيه المرء عن « حق الناس » . فقد فسّر العلاّمة المجلسي (رض) في المجلد الثامن من « بحار الأنوار » الآية الشريفة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾[٣] كما يلي : المرصاد بمعنىٰ الصراط وأن الله تعالىٰ بالمرصاد يسأل عن حق الناس ، ويقسم بعزته وجلاله أنه لو عفىٰ عن كل شيء فلا يعفو عن حق الناس .

في جميع المواقف الأخرىٰ تكون الملائكة هي التي تسأل ، أما في هذا الموقف فإن الله القهّار هو الذي يسأل عن حق الناس ، وسيكون الحساب عسيراً جداً بحيث تُعوض أربعين صلاة مقبولة بدرهم واحد !!

---

(١) بحار الأنوار ج ٨٣ ص ٢٥ .

(٢) بحار الأنوار ج ٨٤ ص ٢٤١ الحديث ٢٧ .

(٣) سورة الفجر ، الآية : ١٤ .

الدرس الرابع عشر

الكوثر

« حوض الكوثر » من مسلّمات بحث المعاد والذي يعترف به جميع المسلمين شيعة وسنة على حد سواء .

وحسب الظاهر فإن سورة الكوثر تتحدث عن « حوض الكوثر » رغم أنها مؤولة للزهراء (ع) ، حيث ذكرت لها معان أخرىٰ .

رواية الثقلين :

كان رسول الله (ص) يروي حديث الثقلين في المواقع المهمة والحساسة ومنها وقت ارتحاله (ص) إلى الرفيق الأعلىٰ . وقد نقل المرحوم مير حامد صاحب كتاب « العبقات » هذه الرواية بأكثر من (٥٠٢) سند عن السنة والشيعة :

« إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، فإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض »[١] .

تشير جملة « حتىٰ يردا علي الحوض » إلى وجود نهر في المحشر باسم الكوثر ، وهذا المعنى أشارت إليه روايات أئمة الدين (ع) . و « الكوثر »

---

(١) نقل هذا الحديث عن الشيعة والسنة بطرق مختلفة وهو محل قبول الفريقين وقد قام المرحوم حجة الإسلام الشيخ محمد قوام الدين بتحقيقات رائعة جداً حول هذا الحديث حيث طبعت في جامعة الأزهر بمصر تحت عنوان « حديث الثقلين » . وللمثال ننقل بعض مصادر الحديث : ١ ـ بحار الأنوار ج ٢٣ ، ٢ ـ وسائل الشيعة ج ١٨ ، ٣ ـ كتاب الغدير للعلامة الأميني (قد) ذكر الحديث بأسانيد كثيرة .

صيغة مبالغة بمعنىٰ الخير الكثير فيكون المعنىٰ حوضاً كثير الخير والبركة . ولهذا أطلق الكوثر على فاطمة الزهراء (ع) ، فكلها خير وبركة .

يفهم من الرواية المذكورة أنّ رسول الله (ص) يصل الكوثر قبل الجميع لأنه يقول : « حتى يردا عليّ الحوض » أي أن كتاب الله تعالىٰ وعترتي يأتياني عند الحوض . ومن روايات أهل البيت (ع)[1] نفهم أن الناس بعد أن يقوموا في نفخة الصور الثانية يتوجهون إلى المحشر بجماعات مختلفة .

﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ ﴾[2] .

في ذلك اليوم يرد أمير المؤمنين (ع) وأتباعه الحقيقيون صف المحشر يُظللهم لواء يُسمىٰ « لواء الحمد » فيردون على النبي الأكرم (ص) . وتفيد الروايات أنه النبي (ص) والأئمة الأطهار (ع) وشيعتهم ومحبيهم سيقفون على مكان مرتفع يشرف على صف المحشر يُسمىٰ « الأعراف »[3] ، يرون منه من حُشر . وإن الشيعة يسقيهم مولىٰ الموحدين أمير المؤمنين (ع) « ساقي الكوثر » بيده المباركة من ماء ذلك الحوض ، الذي يعيد الشيخ شاباً ويزيل الصفات غير الإلهية[4] . ويقفون على مكانٍ عال جداً ، تلّ من المسك ، يملأ المحشر عبيراً ، لا يمسهم فيه جوعٍ ولا عطش ولا نصب . ولا يحسون بطول الزمن فكأن الخمسون ألف سنة يوماً واحداً .

الرسول الأكرم (ص) والإمام علي (ع) عند حوض الكوثر :

يقول صعصعة ، كنت عند أمير المؤمنين (ع) في آخر لحظات عمره الشريف ، وطلبت منه النصيحة ، فذكر لي ساعة رحيل الرسول (ص) حين وضع يده بيده مشيراً (ص) إلىٰ منبر النور الذي سيوضع يوم القيامة وسط

---

(١) جمع المرحوم العلامة المجلسي هذه الروايات في المجلدين ٦ ـ ٧ من كتاب بحار الأنوار .

(٢) سورة الإسراء ، الآية : ٧١ .

(٣) الأعراف جمع عرفة ، يطلق على المكان المرتفع .

(٤) ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غِلٍ تجري من تحتهمُ الأنهارُ ﴾ سورة الأعراف ، الآية : ٤٣ .

المحشر بالقرب من حوض الكوثر ، والذي أقف أنا في أعلىٰ درجاته وأنت يا علي بعدي ، فيعطيني خازن الجنة مفاتيحها وكذلك يفعل خازن جهنم ، بعدها أعطيك يا علي أمر الجنة والنار ، فمن شئت ادخله الجنة ومن شئت ادخله النار .

قسيم الجنة والنار :

تذكر الروايات أن من يكون مع أمير المؤمنين (ع) عند حوض الكوثر سوف لن يحاسب ولن يمر على الصراط ولن . . . فهؤلاء لا يشعرون بالانتقال من نشأة الدنيا إلى عالم الآخرة .

الإمام على (ع) ساقي الكوثر :

نقرأ في بعض الروايات أن بعض الأفراد يسقون وقت احتضارهم ماء الكوثر من يد مولىٰ الموحدين علي (ع) . وهؤلاء ممن تحدثنا عنهم للتو . ولعلّ كلام علي الأكبر (ع) ، حين شهادته يشير إلىٰ هذا المعنىٰ . حيث طلب من أبيه (ع) أن لا يحزن علىٰ عطشه فقد ارتوىٰ من يد جده الذي هيأ لأبيه (ع) الكأس الآخر .

هناك فئة ثانية حين تطلب الماء وقت احتضارها يأتيها الشيطان بوعاء فيه ماء بارد يعرض مبادلته بإيمانها ، فتستجيب له ، فيسلب إيمانها ثم يسكب الماء علىٰ الأرض أمام أعينها .

يوم المحشر ، يوم عسير جداً علىٰ الكافرين والظالمين والفاسقين والمنافقين . أما شيعة علي (ع) المتمسكين بولايته فهؤلاء يشربون ماء الحياة من يد ساقي الكوثر أمير الولاية . والمقصود بالشيعة هم الموالون الحقيقيون لعلي (ع) ، والمقتدون به والسائرون على نهجه .

كلٌّ فرد يحشر مع إمامه :

في يوم القيامة يحشر كل فرد مع الذين من جنسه ويسير خلف إمامه .

كل ذرة من ذرات الأرض والسماء
تنجذب لجنسها كالموجب والسالب

فالناري يجذب الناري إليه

والنوري يجذب النوري إليه

والطيب يطلب الطيبين

والخبيث يجذب الخبيثين

والزنجي يتبع الزنوج

والرومي يعمل مع الروم .

فبعد نفخة الصور الثانية ، يجد كل شخص أبناء جنسه . فالفاسق يلقىٰ الفاسقين ، ويجذب الكافر إلى الكافرين . ويلتحق الظالم المتفرعن بالظلمة المتفرعنين، وبصورة عامة تجد كل أمة إمامها فتحشر معه .

السائرون على خط علي (ع) سيكون هو إمامهم ، والمذنبون الشيعة ـ وكما جاء في الروايات ـ الذين لم يقتدوا بإمامهم ، لا يردوا حوض الكوثر إنما يحاسبوا ، فمن كان أهلاً لشفاعة أهل البيت (ع) نال شفاعتهم ، ودخل الجنة ومن لم يكن أهلاً لها ، ذهب إلى جهنم ليتطهر ثم يكون محلاً للشفاعة .

من هنا لو أردنا السير تحت « لواء الحمد » وخلف أمير المؤمنين (ع) حتى ندخل الجنة ، علينا القيام بتهذيب نفوسنا في الدنيا ، وأن نتخلىٰ عن الصفات غير الإلهية ونلتزم بالأحكام والآداب الشرعية المقدسة . حتى تنصقل قلوبنا فلا نحتاج لإزالة صدأها إلى النار .

فالشيعي المذنب الذي لم يهذّب نفسه ، ويزكيها في الدنيا سيحرق في النار آلاف السنين ليتهذب ويتأهل لدخول الجنة . فعلينا سلوك طريق أئمة أهل الهدىٰ بشكل لا ننحرف عنه في الدنيا والآخرة . فاتباع نهج علي (ع) في الدنيا سيؤدي إلى السير خلفه في الآخرة وعندها تبتعد عنا أهوال القيامة وصحراء المحشر ونار جهنم . لكن لو انحرفنا عن خط علي والأئمة (ع) في الدنيا ، فلا مجال لتوقع الأمان من مصائب القبر والبرزخ والقيامة العظيمة .

محبة أهل البيت (ع) .

نختم هذا الفصل برواية عن الكافي الشريف ، فقد نقل ثقة الإسلام الكليني عليه الرحمة في الكافي عن محمد بن حكيم قوله إنه كان عند الإمام الباقر (ع) فدخل عليه رجلاً مسناً حي الضمير ، فسلم على الإمام (ع) ثم على الجالسين وبعدها طلب الجلوس جنب الإمام (ع) ، فدعاه الإمام للجلوس قربه ، فجلس ، ثم ذكر للإمام حبه لأهل البيت (ع) ولمن يحبهم ، وعداوته لأعدائهم وأعداء محبيهم ، وأن حلال أهل البيت (ع) حلالاً وحرامهم حراماً عنده . ثم استفسر هل ستكتب له النجاة وهو علىٰ هذا الحال ؟!

ثم ينقل الراوي سرور الإمام وارتياحه وإشارته إلى حادثة مشابهة وقعت لأبيه السجاد (ع) وقال : إن رسول الله (ص) وأمير المؤمنين وفاطمة الزهراء والإمامين الحسن والحسين (ع) أجمعين سيحضرون عند فراشك ساعة موتك ، وأن خروج روحك سيكون كخروج الرائحة من الورد ، وستغادر الدنيا أثلج الصدر « لعلها إشارة إلى ارتوائه ساعة قبض روحه من ماء الكوثر بيد علي (ع) » . وسترد علىٰ النبي (ص) وأهل بيته (ع) ، ففرح الرجل المسن من جواب الإمام (ع) فطلب منه تكرار جوابه فكرره (ع) ، فبكى من الفرح كثيراً حتىٰ أُغمي عليه ، فحضر الإمام عند رأسه حتى أفاق ، ثم مسح يديه ببدن الإمام المبارك الطاهر بعدها مسح بيديه جسمه ، وطلب إذن الانصراف من الإمام وخرج .

يقول الراوي حين خرج الرجل المسن نظر الإمام الباقر (ع) إليه نظرة محب عاشق وبقي هكذا حتى توارى الرجل عن الأنظار . عندها أشار الإمام (ع) إلى أنَّ مَن أراد النظر إلى أهل الجنة فلينظر إلى هذا الرجل .

فحب أمير المؤمنين وأهل البيت (ع) ليست بالقول فقط ، بل بالعمل بمنهجهم ، ومحبتهم تعني الابتعاد الجاد عن المعاصي والترفع عن الغيبة والنميمة وإطلاق الإشاعات وإهانة الآخرين . احترموا الشيعة كثيراً ، لا تكنوا في صدوركم حقد على أحد منهم ، تحابوا وتآخوا وتصافوا فيما بينكم ، حرّموا

حرام الله وحللوا حلالـه ، لو ارتكبتم ذنبـاً كبيراً ، عجلوا بـالتوبـة ، واغتسلوا غسل التوبة من المعاصي لتكونوا يوم القيامة في صحراء المحشر تحت « لواء الحمد » وخلف أمير المؤمنين (ع) ، ذلك هو الفوز العظيم .



الدرس الخامس عشر

الحساب والكتاب

يستفاد من القرآن الكريم أنّ هناك في يوم القيامة حساباً وكتاباً وهو ما اصطلح عليه في علم الكلام بـ « تطاير الكتاب » . أي كما يجد الطير عشه ، كذلك صحيفة الأعمال للإنسان تجد صاحبها .

ولكون البحث قرآنياً لذلك سنبحث في دلالات الآيات القرآنية الشريفة . فلو أردنا الدخول في الروايات وفي خصوصيات البحث من النواحي العرفانية والفلسفية والكلامية لما وصلنا إلى نتيجة ، لضيق الوقت أولاً ، ولخروجنا عن صلب الموضوع ثانياً ، فقد قررنا منذ البداية البحث في المعاد ضمن إطار الآيات القرآنية ، وأن لا نلجأ إلى الروايات والاستدلالات والبراهين الفلسفية إلّا عند الحاجة .

صحيفة الأعمال :

للقرآن الكريم تأكيدات خاصة علىٰ صحيفة الأعمال ، وسنحاول هنا البحث في الآيات التي تطرقت إلىٰ صحيفة الأعمال لنفهم المراد منها . ورد في القرآن الكريم أن صحيفة أعمال الصالحين تُعطىٰ بيمينهم ، بينما تعطىٰ صحيفة أعمال المسيئين بشمالهم أو من الخلف .

إعطاء صحيفة العمل باليمين :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴾[1] .

---

(١) سورة الحاقة ، الآية : ١٩ .

ثم يبيّن سبب نظافة صحيفته فيقول :

﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴾[1] .

ثم يصف القرآن الكريم حالهم في قوله تعالىٰ :

﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾[2] .

إنها ثمرة أعمالهم الصالحة واستقامتهم في الدنيا .

إعطاء صحيفة العمل بالشمال :

تحدث القرآن الكريم عمن يُعطىٰ القرآن كتابه بشماله في قوله تعالى :

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾[3] .

نفس المعنىٰ في سورة الإنشقاق :

كذلك جاء الحديث عن صحيفة عمل الإنسان في سورة الإنشقاق حيث نقرأ

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾[4] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا . . . ﴾[5] .

---

(١) سورة الحاقة ، الآية : ٢٠ .

(٢) سورة الحاقة ، الآيات : ٢١ ـ ٢٤ .

(٣) سورة الحاقة ، الآيات : ٢٥ ـ ٢٩ .

(٤) سورة الإنشقاق ، الآيات : ٧ ـ ٩ .

(٥) سورة النساء ، الآية : ٤٧ .

نستفيد من هذه الآيات الشريفة أن شهداء الزور والمنافقين والمرائين يأتون المحشر ووجوههم مردودة علىٰ الإدبار . أولئك الذين أُعطوا صحائف أعمالهم من الأقفية .

إتمام الحجة :

في سورة الإسراء آية تهز من الأعماق وتنبه النفوس ولطالما تلاها علينا استاذنا العظيم وقائد الثورة (قد) في دروسه الأخلاقية ، هذه الآية يُستشهد بها في البحوث الأصولية . فالله تعالىٰ لا يحاسب قبل إتمام الحجة ، وقد أتمّها علىٰ الإنسان في الدنيا وسيدخله الجنة أو النار في الآخرة بناءً على حججه التامة عليه .

﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[1] .

معنى صحيفة الأعمال :

ما هي صحيفة الأعمال ؟ أهي صفحة قلب الإنسان ؟ بعض الآيات الشريفة تشير إلىٰ هذا المعنىٰ باعتبار أن هوية الإنسان هي صحيفة أعماله ذاتها . أهي أعمال الإنسان التي أحاطت به ؟ بعض الآيات الشريفة تشير إلى هذا المعنى أيضاً أهي خلاصة الحساب ؟ نقرأ في القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[2] .

فتكون صحيفة الأعمال خلاصة لما يكتبه الملكان الموكلان بالإنسان والتي

---

(١) سورة الإسراء ، الآيات : ١٣ ـ ١٥ .

(٢) سورة ق ، الآية: ١٨ . رقيب وعتيد ملكان يرافقان الإنسان دائماً أحدهما على كتفه الأيمن والثاني على الأيسر يكتبان كل أعمال الإنسان .

تعطى له يوم القيامة .

إنّ الآيات الشريفة تدل على المعاني الثلاثة ، لهذا تكون صحيفة الأعمال ثلاثة أمور :

١ ـ صفحة النفس الإنسانية :

وهي نفس صحيفة الأعمال التي تظهر فيها حقيقة الإنسان وسرائره .

﴿ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ﴾(١) .

ورد في تعبير آخر في سورة المطففين لصحيفة الأعمال في قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴾(٢)

« كلا » هنا تحقيقية ، معناها : يقينـا صحيفة أعمال المجرمين في جهنم ، يعني صحائف أعمالهم هي صفحات قلوبهم وهذه أصبحت جهنمية ، فصحيفة الأعمال هي هوية الإنسان .

﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴾(٣) .

ففي ذلك اليوم يعرف الأفراد بسيماهم ، أيهم من أهل النـار وأيهم ليسوا من أهلها .

٢ ـ تجسم الأعمال:

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾(٤) .

فالجنان نتيجة الأعمال الصالحة التي رأتها الملائكة الموكلة وهي الأعمال التي بيّضت صحيفة عمل الإنسان . وفي سورة الكهف أيضـاً جاءت صحيفـة الأعمال بمعنىٰ تجسم الأعمال :

---

(١) سورة يونس ، الآية : ٣٠ .
(٢) سورة المطففين ، الآيتان: ٦ ـ ٧ .
(٣) سورة الرحمن ، الآية : ٤١ .
(٤) سورة المطففين ، الآيات : ١٨ ـ ٢١ .

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[1] .

فالمكان الموكلان يكتبان كل صغيرة وكبيرة ، فهما لا يغفلان عن شيء من أول العمر حتىٰ آخره ، كاتبين كلّ شيء بلا استثناء .

آية أخرىٰ بنفس المعنىٰ :

﴿ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ ﴾[2] .

يعني سيجدون كل ما عملوه في الدنيا حاضراً أمامهم غداً ، بشكل يكون الإنسان في الآخرة محاطاً بأعماله . وقد خوّف الله تعالىٰ في القرآن الكريم عبادُه وحذرهم من عواقب المعاصي والذنوب لما بين لهم إحاطة أعمالهم بهم يوم القيامة .

فلو ارتكبتم سوءاً ، ستبتلون بعذاب يكون فيه لسان حالكم : يا ليت بيننا وبين أعمالنا بعدّ المشرقين .

٣ ـ خلاصة الحساب :

خلاصة الحساب هو المعنىٰ الآخر لصحيفة الأعمال .

﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[3]

بالطبع ، هناك أمة لا تجثوا ، وهم شيعة أمير المؤمنين (ع) الخُلّص . فالذين انتهجوا ولاية أهل البيت (ع) ، وتمسكوا بها في الدنيا . أولئك لا يجثون أبداً لا في الدنيا ولا في الآخرة .

(١و٢) سورة الكهف ، الآية : ٤٩ .　　(٣) سورة الجاثية ، الآية : ٢٨ .

الدرس السادس عشر

الميزان في يوم القيامة

يُخبر القرآن الكريم عن وجود ميزان لوزن الأعمال في يوم القيامة ، فمن ثقلت أعماله الصالحة فهو من أصحاب الجنة ، ومن خفت أعماله الصالحة فهو من أصحاب الجحيم .

﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم . . . ﴾[1]

قال تعالىٰ في سورة الأنبياء عن موازين القسط في يوم القيامة :

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴾[2] .

هناك الكثير من الآيات المشابهة لهاتين :

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ . . . ﴾[3] .

---

(١) سورة الأعراف ، الآيتان : ٨ ـ ٩ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية : ٤٧ .

(٣) سورة القارعة ، الآيات : ٦ ـ ١١ ، الهاوية اسم إحدى طبقات جهنم .

التناسب بين الميزان والموزون :

ميزان الشيء يتناسب معه ، فوزن مواد كالقمح والشعير تقاس بوحدة الثقل ، أما الذهب فيكال بمكيال دقيق جداً يسمىٰ « القيراط » . وهكذا بالنسبة لبقية المواد والأشياء .

ثقل الشيء يتناسب مع نفسه :

كذلك فإن ثقل وخفة كل شيء أو موضوع تتناسب ونفس ذلك الشيء أو الموضوع . ففي الأمور المادية يكون ثقل وخفة الحنطة والشعير متناسبة معها ، وحين يقال قطعة قماش ثقيلة فلا يقصد وزنها ، بل متانة موادها . ولما ينعت مثقال الماس بالثقل فالمراد كثرة جودته وقيمته تماماً كما يطلق على من كان واسع الصدر، وذو أخلاق سامية ، بالإنسان الكبير ، فالكبر يعني الشرف والسيرة المعنوية والإنسانية . لهذا يكون ثقل كل شيء متناسباً مع نفسه ، وحيناً يكون المقصودُ بثقل الشيء أو خفته الكمية وحيناً آخر الكيفية .

معنىٰ ميزان الأعمال :

ليس المراد بميزان الأعمال في يوم القيامة المعنىٰ الاصطلاحي والمتبادر إلى الذهن ، أي الموازين الدائرة بيننا من ذي الكفتين والقبان وغيرهما ، ولا يقاس ثقل وخفة السيء أو الأعمال بكميتها ، بل للميزان يوم القيامة مصاديق مختلفة وهي :

١ ـ ميزان الهوية :

هوية الإنسان ميزان لأعماله ، ووحدة قياس للثقل أو الخفة يوم القيامة . فإذا ورد الإنسان صف المحشر تحفه الملائكة من كل صوب ، ويسير تحت لواء مولىٰ الموحدين أمير المؤمنين (ع) ، ووجهه يضيء كالبدر التمام ، فميزان أعمال وهوية هذا الإنسان يشهدان على أنه من أصحاب الجنة . أما من يرد صف المحشر بشكل عقرب ، والسلاسل تطوّق عنقه والأغلال تقيد رجليه ، نفس هذه الهيئة أو الهوية هي ميزان أعماله . إذن المقصود بالثقل هنا العزّة والكرامة ، وبالخفة الضعّة والخسّة .

٢ ـ ميزان تجسيم الأعمال :

تجسُّم الأعمال بالمعنىٰ الثاني ميزان للإنسان ، أي أن أعمال الإنسان تكون ميزاناً له يوم القيامة . فالعمل بذاته هو إما ثقيل أو خفيف . كما الدرة المتلألئة يكون ذاتها ثقيلاً . أما الحجارة فذاتها خفيفة لا قيمة لها . لذا حين يصل الصالحون صحراء المحشر، تدلّ أعمالهم الصالحة المتجسمة صوراً جميلة علىٰ أنهم من أصحاب الجنة ، فهي خير ميزان لفرز الصالح عن الطالح . لكن المجرمين يحشرون وقد أحاطت بهم أعمالهم السيئة المتجسمة صوراً بشعة ، دماء ، ثعابين ، حشرات ووحوش .

إذن تجسم الأعمال ميزان حاسم .

٣ ـ ميزان صحيفة العمل :

صحيفة أعمال الإنسان هي الميزان الثالث . ففي ذلك اليوم تُسلّم خلاصة أعمال الناس إليهم ، وهذا خير ميزان . فمن أوتي كتاب أعماله بيمينه كان من الفائزين وأصحاب الجنة . ومن أوتي كتاب أعماله بشماله كان من أصحاب النار . فما يؤدي بالإنسان إلى النار هو خفة صحيفة أعماله ، وما يجعله من أصحاب الجنة هو ثقل تلك الصحيفة . أو بعبارة أخرىٰ كون صحيفة الأعمال بشمال الإنسان دليل على خسارته ، وكونها بيمينه دليل علىٰ فوزه .

٤ ـ ميزان الإمام علي (ع) :

يُعتبر الإمام علي (ع) هو الميزان الرابع ، حيث أكّدت كثير من الروايات على ذلك . ففي زيارته (ع) نقرأ :

« السلام عليك يا ميزان الأعمال »(١) .

وجاء في روايات أخرىٰ أن الأنبياء والأوصيار هم الموازين؛ القسط :

---

(١) جاء في الروايات أن أمير المؤمنين (ع) والأئمة الطاهرين هم الموازين القسط ، قال الصادق (ع): « نحن الموازين القسط » .
علم اليقين ـ الفيض الكاشاني (رض) ج ٢ ص ٥٤٤ .

« إن الموازين القسط هم الأنبياء والأوصياء »[1] .

وجاء في أخرىٰ :

« سألت أبا عبد الله (ع) عن قوله تعالىٰ : ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ، قال (ع) : هم الأنبياء والأوصياء »[2] .

بديهي أن الميزان هو العمل برأي أئمة الدين (ع)، والسير علىٰ خطاهم، والتخلق، بأخلاقهم والتمسك بولايتهم وعشق وجودهم المبارك . فلو لم يعرف الإنسان أولئك العظماء ولم يثبت على طاعتهم في الدنيا لما كان من المهتدين في الآخرة ، لحظة ميزانه . ومن تمسّك بهم فقد تمسّك بالله تعالىٰ . ومن ابتعد عنهم فقد ابتعد عنه تعالىٰ . فالبعد عنهم يسبب خفة الميزان ، والقرب منهم يسبب ثقله . إذن علي (ع) ميزان الأعمال ، فيحضر الإنسان يوم القيامة إلى صف المحشر، وتوزن أعماله بعلي (ع)، فلو تناسبت أعماله وأقواله وأفكاره مع أعمال وأقوال وأفكار علي (ع) ، كان من أصحاب الجنة ، وإلّا فهو من أصحاب النار .

فعلي (ع) ميزان الحق والباطل ، لأن القرآن يميّز الحق من الباطل وعلي هو القرآن الناطق .

ويظهر من القرآن الكريم الذي ذكر الميزان بصيغة الجمع ﴿ ونضع الموازين . . . ﴾[3] أن موازيناً وليس ميزاناً واحداً سيوزن بها أعمال الناس يوم القيامة . كذلك يُستدل علي تعدد الموازين من استعمال الخفة والثقل بصيغة الجمع أيضاً : ﴿ وأمّا من ثَقُلتْ موازينُهُ ﴾[4] إذن فهوية الإنسان ، وصحيفة أعماله، وتجسُّم الأعمال، وأمير المؤمنين (ع) هي الموازين القسط للأعمال .

---

(١) علم اليقين ـ الفيض ـ ج ٢ ص ٥٤٤ .

(٢) المصدر نفسه ـ ج ٢ ص ٥٤٤ .

(٣) سورة الأنبياء ، الآية : ٤٧ .

(٤) سورة القارعة ، الآية : ٦ .

تذكرة :

بعـد هذا البيـان يُستحسن بنا التفكيـر في حالنـا ، فنـزن أنفسنـا بمـولىٰ الموحدين (ع) ، ويكون كل سعينا وهمنا هو اتباع نهجُه والتمسك بـولايته . فقد أمضىٰ الإمام علي (ع) كلَّ عمره المبارك لله تعالىٰ ، ولـم ينحـرف لحظة واحدة عن طريق الله تعالىٰ ، فليكن مقتدانا ومهتدانا ، ولنتخذ الشيطان والنفس الأمّارة بالسوء أعداءً لنا وإلاّ :

أخشىٰ أن لا تصل الكعبة يا إعرابي
فالطريق الذي تسلكه يوصل إلى تركستان

لنتأمل بضمائر قلوبنا في حالات أميـرالمؤمنين (ع) ، ونتفكّر بعمق فيمـا قضىٰ الثلاثة والستين عاماً من عمره الشريـف ، ثلاثة وعشرين عاماً منها قضاها في الجبهـات والحروب ، فحين كـان في المدينـة اشتـرك في اثنتين وسبعين معـركـة من مجمــوع أربـع وسبعين ، حيث قضىٰ في اثنتين منهــا بجبهـات المنافقين بأمر الرسول (ص) .

وخلال ثلاثة عشر عاماً قضاها في مكة المكرمـة كان دائمـاً في الجبهات والحروب التي كانت أشد منها في المدينة .

وبعـد رحيل الـرسول الأكـرم (ص) إلى الـرفيق الأعلىٰ ، صبـر الإمـام علي (ع) خمسة وعشرين عاماً حفاظاً علىٰ وحدة المسلمين ، صبر وفي العين قذىٰ وفي الحلق شجىٰ .

لنرىٰ أنفسنا خلال هذه النظرة السريعة لحياة علي (ع) . . . ولنعمل من أجل وحدة الكلمة ، ورصّ الصفوف ضد أعداء الإسلام .

الدرس السابع عشر

شهادة الشهود، وحال العباد

تؤكد الآيات القرآنية الشريفة وروايات أهل البيت (ع) عن وجود أكثر من عشرة شهود يوم القيامة يشهدون مع أو ضد الإنسان . هنا سنشير إلى ثلاث مجاميع من الشهود تتمتع بأهمية أكبر من غيرها .

١ ـ أعضاء وجوارح الإنسان :

نقرأ في القرآن الكريم أن أعضاء وجوارح الإنسان تشهد ضده يوم القيامة[١] . فحين ينكر المجرمون أعمالهم السيئة التي ارتكبوها في الدنيا ، وأمام الله تعالىٰ ، ولا يعبأون لصور أعمالهم المتجسمة ، يُنطق الله تعالىٰ أعضائهم وجوارحهم لتشهد عليهم .

﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾[٢] .

في هذه الآية الشريفة ذُكرت الأيدي والأرجل من باب المثال ، وإلّا فإن جميع الأعضاء والجوارح تشهد ضد الإنسان كما جاء في قوله تعالىٰ :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٠ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا

(١) لا يستنبط من القرآن الكريم أن الأعضاء والجوارح تشهد لصالح الإنسان .
(٢) سورة يس ، الآية : ٦٥ .

﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾(1)

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾(2) .

تفيد الآيات الشريفة السابقة أنّ أعضاء الإنسان ، كالعين والأذن والجلد ، تشهد أيضاً ضده ، وأشير في الآية الأخيرة إلىٰ مسؤولية « الفؤاد » في معصية باقي الجوارح . وهذا يعني أنّ هوية الإنسان وشخصيته ستشهد ضده، وسيشهد القلب على أفكاره الضالة وعقائده المنحرفة والخرافية . وهي الشهادة الأصعب .

تذكرة :

تدبَّروا في هذه الآيات المباركة ، واعلموا أن عقائدنا ستشهد علينا « أي ضدنا » يوم القيامة ، فاحذروا من المبادرة إلى عمل أو التفوه بحديث دون تفكير مسبق .

٢ ـ الملائكة :

﴿ كِتَاب مَرقُوم يَشْهَدُهُ المُقرّبُون ﴾(3)

سيكون الأمر عسيراً لو كان المقصود بـ « المقربون » الملكين « رقيب » و « عتيد » فالروايات تحدثت عن وضع الإنسان الدائم تحت مراقبة الملكين . يتغيران كلّ يوم ، بحيث لا يوكلان عليه أكثر من مرّة طول عمره ، ومن هنا تأتي صعوبة الأمر حيث سيزدحم الشهود ضده يوم القيامة .

٣ ـ أئمة الدين (ع) :

مجموعة الشهود الثالثة والأهم من السابقين هم الأئمة الأطهار (ع) ، والذين سيشهدون معنا أو ضدنا . ومن شهد أئمة الدين (ع) ضده فهو أخسر الخاسرين . قال الصادق (ع):

---

(١) سورة فصلت ، الآيتان : ٢٠ ـ ٢١ .
(٢) سورة الإسراء ، الآية : ٣٦ .
(٣) سورة المطففين ، الآيتان : ٢٠ ـ ٢١ .

« ويل لمن كان شفعاؤه خصماؤه » .

حقاً أنه أمر صعب لا يمكن تحمله .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[1] .

للآية الشريفة معنيان :

الأول: جعلناكم أمة وسطا بتخللكم بين طرفي الإفراط والتفريط ، لتشهدوا علىٰ أعمال الناس ولتهتدي سائر الأمم بدينكم ولتكونوا لهم أمثالاً في الفضائل والأخلاق الإنسانية ، كما كان الرسول عليكم شهيداً ليكون لكم المثل الأكمل .

الثاني : وهو معنىً باطني ، وهو الشهادة علىٰ الأعمال في يوم القيامة ، علىٰ هذا يكون معنىٰ الآية إن الله تعالىٰ يخاطب الأئمة المعصومين (ع) بأنه خلقهم معصومين دون إفراط أو تفريط ليشهدوا على أعمال الخلق يوم القيامة[1] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٤٣ .

(٢) وردت روايات كثيرة عن الأئمة الطاهرين (ع) تقول : « نحن شهداء الناس » عن أبي بصير عن أبي عبد الله (ع) : في قوله تبارك وتعالىٰ : ﴿ وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداءَ علىٰ الناس. . . ﴾ قال (ع): « نحن الشهداء على على الناس بما عندهم من الحلال والحرام ، وبما ضيعوا منه » .
تفسير نور الثقلين ج ١ ص ١٣٤ .

كيفية شهادة أئمة الدين (ع)

تبيّن لنا مما سبق أن الأئمة المعصومين (ع)، سيشهدون مع أو ضد الإنسان يوم القيامة. وأنّ لأئمة الدين نحواً من الشهود على جميع عالم الوجود. فكل العالم الآن، ونحن منه ـ في المحضر المقدّس لإمام العصر (ع). فهو شاهد على أقوالنا وأفعالنا، بل أكثر من ذلك، شاهد على نيّاتنا وخطرات قلوبنا، فكما ذكرنا سابقاً أن شهادة الأئمة (ع) في ذلك العالم تتطلب اطلاعاً وبصيرة بأعمالنا ونيّاتنا في هذا العالم. فكيف يمكن الشهادة على خواطر قلوب لم يطلعوا عليها.

الشهداء الآخرون:

الزمان والمكان وحتى الشيطان هم من شهداء يوم القيامة. فكما نقل القرآن الكريم عن الشيطان أنه يقول لا تلوموني بل لوموا أنفسكم، فلم يكن لي عليكم سلطان وإنَّما وسوستُ في قلوبكم فقط، وكان من نتائج هذا الوسواس دعوات (١٢٤) ألف نبي، والأئمة الطاهرين (ع) إلى الصراط المستقيم.

حال الإنسان بعد الحساب:

بعد الحساب والكتاب والميزان والشهادة يمتاز أصحاب الجنة عن أصحاب النار، ويتوجه كل فريق إلى مقرّه، وقد شرح القرآن الكريم في آخر سورة الزمر وفي سورة الحديد حال كلا الفريقين وهما في طريقهما إلى مقرّهما. فالمؤمن يشع نوراً وهو يتجه إلى الجنة، وهذا النور هو أثر أعماله الصالحة في الدنيا، كما أنَّ الملائكة تستقبله مرحبة، محيطة ومحتفية به. أما

أصحاب النار ، فهم بؤساء أثناء طريقهم إلى جهنم ، لا يجدون غير الظلام ، لأن أعمالهم الدنيوية السيئة لا تنير لهم الدرب .

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾[1] .

جسر الصراط :

يقول الشيخ الصدوق في كتابه « الاعتقاد » : نحن الشيعة نعتقد بوجود جسر فوق جهنم ما من أحد إلّا ويعبر منه .

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾[2] .

ما المراد من هذا الجسر ؟

لعل المراد هو أن من عبروا في الدنيا جسر النفس الأمّارة بالسوء ، وبلغوا مرتبة الإنسانية سيتمكنون هناك أيضاً من عبور جسر جهنم ليصلوا إلىٰ أعلىٰ عليين ـ لكن الذين لم يقدروا علىٰ هذا العبور وسقطوا في النار المحرقة للنفس الأمارة ، سوف لن يستطيعوا بالتأكيد عبور جسر القيامة وسيسقطون بنار جهنم ، إذن فالأخرة هي باطن الدنيا ، ستظهر الحقائق بها ، فتكون حقيقة جسر النفس الأمارة هو جسر صراط الآخرة . « الصراط » لغة يعني الطريق ، وفي اصطلاحنا الطريق إلى الجنة .

كيفية عبور أصحاب الجنة من الصراط :

نقرأ في بعض الروايات أن بعض الناس يعبرون جسر الصراط كلمع البرق ، بعضهم كمر الريح ، وآخرين كراكبي الخيل ، وبعضهم كالمواشي ،

---

(١) سورة الحديد ، الأيتان : ١٢ ـ ١٣ .   (٢) سورة مريم ، الآية : ٧١ .

أو يتعثرون في سيرهم ، حتى يصلون إلى الجنة . هؤلاء كلهم من أصحاب الجنة . فالتابعين في الدنيا لأمير المؤمنين والأئمة الأطهار (ع) والواضعين طوق العبودية في أعناقهم ، يعبرون الصراط كلمع البرق وينالون ما وعدهم به ربهم سريعاً ، والآخرون يعبرون بسرع متفاوتة ، وصعوبات مختلفة تتناسب مع أعمالهم الصالحة وتمسكهم بأئمتهم (ع) .

الكافرون لا يدخلون الجنة :

لكن هذا الجسر يكون بالنسبة لأصحاب النار أدق من الشعرة وأحد من السيف[1] . وربما يكون المراد من هذه العبارة أن حال الكفّار سيكون يوم القيامة بشكل لا يقدرون فيه على عبور الصراط :

﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾[2] .

فيمكن القول أن الكافرين والمذنبين والظالمين والأفاكين ومشيعي الفواحش . . . الخ . . . سوف لن يقدروا على اجتياز الصراط ، فيتردون في أعماق الجحيم .

المعنىٰ الآخر للصراط :

وحسب رواية أخرىٰ فإن الصراط هم المعصومون (ع) ومعناه أن كل من عرفهم واتبعهم وتمسك بولايتهم سيهتدي إلى صراط الله المستقيم .

ومن هُدي في الدنيا إلى الصراط المستقيم من الطبيعي أن يجتاز جسر الصراط بسهولة ، والإمام علي (ع) يشير إلىٰ هذا المعنىٰ :

« إنا صراط الله المستقيم وعروته الوثقىٰ التي لا انفصام لها »[3] .

---

(١) الاعتقاد للصدوقّ ص ١٠٤ ـ معاني الأخبار ص ٣٢. بالطبع نقرأ في الروايات. إن الله تعالى يجعل الجسر عريضاً للمؤمنين « يجعله الله للمؤمنين عريضاً وللمذنبين دقيقاً » .

(٢) سورة الأعراف ، الآية : ٤٠ .

(٣) اعتقاد الشيخ الصدوق (رض) ص ١٥٣ قال مولانا الصادق (ع) : إنه سئل عن الصراط فقال: « هو الطريق إلى معرفة الله عزّ وجلّ وهما صراطان ، صراط الدنيا وصراط الأخرة ، فأما صراط الدنيا فهو الإمام المفترض الطاعة من عرفه في الدنيا=

فالطريق إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ والسبب في اجتياز الصراط بسرعة وسهولة هو معرفة الأئمة (ع) والتمسك بولايتهم .

= واقتدىٰ بهداه مرّ على الصراط الذي هو جسر جهنم في الأخرة ، ومن لم يعـرفه في الدنيا زلت قدمه عن الصراط في الآخرة فتردى في نار جهنم » .

الدرس الثامن عشر

الشفاعة

الشفاعة من الأمور الواضحة في القرآن والروايات ، وقد نقل العلامة المجلسي (رض) في المجلد السابع من « بحار الأنوار » أكثر من مائة رواية عن الشفاعة ، وفاقت الروايات المتضمنة على الشفاعة في البحار على الألف رواية .

نماذج من الآيات القرآنية :

﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾[1] .

﴿ لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾[2] .

﴿ .. عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ .. وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ .. ﴾[3] .

فالشفاعة لا تكون إلّا لمن رضي الله تعالىٰ عن دينه .

﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾[4] .

وهو حوار يوم القيامة بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ، ثم أن الشفاعة لا تعني الجزاف والظلم :

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٥ .

(٢) سورة مريم ، الآية : ٨٧ .

(٣) سورة الأنبياء ، الآيات : ٢٦ ـ ٢٨ .

(٤) سورة المدثر ، الآيات : ٤٦ ـ ٤٨ .

﴿ وَاتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾[1] .

فليس في ذلك اليوم غبن أو حق مسلوب أو ظلم أو رشوة .

١ ـ معنىٰ الشفاعة :

سيكون أمير المؤمنين (ع) قائداً وإماماً وشفيعاً لمن اتخذه في الدنيا قائداً وإماماً . ففي الدنيا سيكون قائداً تشريعياً وفي الآخرة تكوينياً . فمن ارتضىٰ قلبه بولاية الإمام علي (ع) ، واختاره قائداً وإماماً في الدنيا ، أصبح هذا التولي هويته في الآخرة . فيدخل الجنة مع مولىٰ الموحدين (ع) وتحت لوائه . وهكذا الذي يضرب « يلطم » على صدره تحت راية سيد الشهداء (ع) ويتمسك بالولاية قولاً وعملاً ، ستظله راية الحسين (ع) يوم القيامة . . . هنا قيادة تشريعية أما هناك فتتخذ التبعية شكلاً تكوينياً .

وقد أيّد هذا المعنىٰ أستاذنا الكبير المرحوم العلامة الطباطبائي في كتابه « الميزان » الشريف ، كما استحسن العرفاء والفلاسفة هذا المعنىٰ للشفاعة .

٢ ـ الواسطة للفيض :

المعنىٰ الثاني للشفاعة يتمثل في كونها واسطة للفيض ، فكما ورد في القرآن الكريم والروايات الشريفة ، والحكمة المتعالية للمرحوم صدر المتألهين ، فإن وسائط هذا العالم هي الحقيقة المحمدية ، وحقيقة آل بيته (ع) ، أي أن كل أعمالنا مرهونة بإفاضات الحق تعالىٰ وواسطة هذا الفيض هم أهل البيت المعصومين ، فيكون الوجود والسلاّمة والعلم والعقل والمال . . . إفاضات الحق تعالىٰ بواسطة أهل البيت (ع) .

الأدعية تشير إلىٰ هذا المعنىٰ :

بعبارة ثانية يكون الوجود متطفل على الوجود المبارك لأهل البيت (ع) . لذا نقرأ في زيارة حضرة بقية الله (عج) :

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٤٨ .

« بيمنه رزق الورىٰ وبوجوده ثبتت الأرض والسماء» .

أي أن العالم يرزق بالوجود المقدس والمبارك لإمام العصر (ع) ، فهو واسطة الفيض الإلهي إلى عالم الوجود وهو سرٌّ بقائه وحفظه ، كما نقرأ في الزيارة الجامعة :

« بكم فتح الله ، وبكم يختم وبكم ينزل الغيث وبكم يمسك السماء أن تقع علىٰ الأرض ، وبكم يُنفِّسُ الهم ويُكشفُ الضر » .

والعرفانيون أيضاً يعتبرون أهل البيت (ع) واسطة للفيض فيقولون : إن العالم جَسَدٌ روحه الولي ، والروح تدبر الجسد فما دام الولي باقياً في هذا العالم ، فالعالم يستمد الفيض من الحق تعالىٰ ، وهذا الاستمداد هو سر حفظ وبقاء العالم .

قيام العالم بالحجة :

كما ذكرنا سابقاً أن شهادة الأئمة (ع) ستُقَرِرْ مصير الإنسان يوم القيامة ، فإما الجنة أو النار . وأن للأئمة (ع) حضور وتسلط وشهادة تامة وكاملة على عالم الوجود . ولهم الولاية الكلية والمطلقة[1] .

وقد نقل ثقة الإسلام الكليني (رض) روايات كثيرة بهذا الخصوص في كتابه « الكافي » وقد جمعت هذه الأحاديث في المجلد الثاني للكافي الشريف .

« سألت الرضا (ع) فقلت: «أتخلو الأرض من حجة؟» فقال : « لو خلت الأرض من حجة طرفة عين لساخت بأهلها »[2] .

بالطبع « لساخت بأهلها » من باب المثال وإلاّ فالمسألة أدق من ذلك ، فبصورة عامة لو خلت الأرض من حجة لانمحىٰ عالم الوجود ، فالأئمة (ع)

(١) يقول الإمام الخميني (قد) في كتاب « مصباح الهداية » بخصوص الولاية الكلية والمطلقة للأمير عليه السلام : « . . . فهو بمقام ولايته الكلية قائم على كل نفس بما كسبت ومع كل الأشياء . . . » .

(٢) بحار الأنوار ج ٢٣ ص ٢٩ الحديث ٤٣ .

محور هذا العالم[1] ، فلا يمكن دخول الجنة إلّا بواسطتهم (ع) وحتى الأنبياء والأوصياء لا يدخلون الجنة إلّا بواسطتهم (ع) لأن الجنة من إفاضات الحق تعالىٰ والأئمة (ع) هم واسطة هذا الفيض .

٣ ـ دعاء أئمة الدين (ع) :

المعنى الثالث للشفاعة هو ما بيّنه أستاذنا العظيم قائد الثورة (قده) في كتاب « كشف الأسرار » في ردّه علىٰ « الكسرويين » فقد بين الإمام الراحل عدة وجوه للشفاعة ودفع إشكالات وشبهات المنحرفين والمغرضين والجهلة ، فأجاب على الإشكال الذي يعدّ طلب الشفاعة من الأموات شركاً بقوله : « لا يكون شفعاؤنا بعد رحيلهم من الدنيا في عداد الأموات ، فهم أحياء خالدون ، وإن حياتهم وخلودهم وإحاطتهم الكاملة وإشرافهم التام على عالم الوجود من الأمور الحتمية » . فلا يكون طلب الشفاعة من النبي (ص) والأئمة شركاً وعبثاً ، فهم بعد رحلتهم ليسوا كالخشب والأحجار وباقي الجمادات . ثم بيّن الإمام الخميني (رض) الشفاعة قائلاً: « الشفاعة في حقيقتها دعاء النبي (ص) والأئمة (ع) فيغفر الله بدعائهم للمذنبين وبديهي أن الشفاعة لا تدخل في أفعال الله تعالىٰ ، بل هي بإذن الله » .

فكما ندعو ونطلب المغفرة لنا وللآخرين كذلك النبي (ص) والأئمة (ع) يدعون ويطلبون المغفرة لأمتهم يوم القيامة . وبالتأكيد فإن دعاء النبي (ص) وأهل البيت (ع) هي من الأدعية المستجابة .

٤ ـ الاختيار التام لأهل البيت (ع) :

لأهل البيت (ع) اختيار تام بإذن الله تعالىٰ ، يستخدمونه يوم القيامة ، وبناءً على هذا المعنىٰ لا يبقىٰ مجالاً للإشكال على كون مفتاح الجنة والنار بيد النبي (ص) وأهل البيت (ع) وأنهم قسماء الجنة والنار[2] .

---

(١) لذلك هناك تَعْبيرات كثيرة تطلق عليهم (ع) مثل قطب عالم الأمكان ، محور عالم الوجود . . . الواسطة بين الغيب والشهادة ، مظهر الحقائق الإلهية . . . الخ .

(٢) عن عبادة قال: سمعت علياً (ع) يقول: «أنا قسيم الجنة والنار ، فمن تبعني فهو مني ، ومن لم يتبعني فهو من أهل النار». علم اليقين ـ الفيض (رض) ج ١ ص ٥٣٦ .

والآيات القرآنية تشير إلى نفس هذا المعنىٰ أيضاً ، كما تجدر الإشارة إلىٰ أن إرادتهم ومشيئتهم (ع) فـانيـة في الإرادة والمشيئة الإلهية ، والحقيقـة أن مشيئتهم هي مشيئة الله تعالىٰ .

نقرأ في ذيل الآية الشريفة : ﴿ ولسوف يُعطيكَ ربُّكَ فترضىٰ ﴾[1] إن الرسول الأكرم (ص) سيخر ساجداً يوم القيامة ، فيأتيه الخطاب ، قم يا محمد (ص) ، فيطلب (ص) العفو لأمته المذنبة فيأتي الخطاب : قم واشفع لهم فإن شفاعتك مقبولة[2] . وقد أشار الإمام السجاد (ع) إلى هذا المعنىٰ حيث بين أن الرسول (ص) لا يرضىٰ الذهاب إلى الجنة بينما تذهب أمته المذنبة إلى النار .

كذلك أشار الإمام الصادق (ع) إلى أن آية : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضىٰ ﴾ هي أرجىٰ آية في كتاب الله تعالىٰ أعطت الرسول (ص) النصر والفتح في الدنيا ومقام الشفاعة في الآخرة .

فيمن لا تجري الشفاعة ؟

لا بد من الإشارة إلى عدم استحقاق بعض الناس للشفاعة وهؤلاء لا سبيل لهم إلى الجنة . منهم تاركي الصلاة والمستخفين بها ، قال الإمام الصادق (ع) :

« لا تنال شفاعتنا من استخف بالصلاة »[3] .

والشفاعة لا تشمل الظالم . ومن المؤكد أن الشيعي المذنب لا يُخلد في النار ، فبعد أن يتطهر ينال شفاعة أهل البيت (ع) فينجو من النار .

والمجموعة الأخرىٰ التي لا تنال الشفاعة هي التي تُبيّنها الآية :

﴿ فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمْ نَكُ

(١) سورة الضّحَىٰ ، الآية : ٥ .
(٢) راجع كتب التفسير الروائية مثل البرهان ، نور الثقلين ، الصافي ومجمع البيان .
(٣) وسائل الشيعة .

مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾[1]

(١) سورة المدثر ، الآيات : ٤٠ ـ ٤٩ .

الدرس التاسع عشر

نهاية سير الإنسان

ينتهي مسير الصالحين بالجنة والمسيئين بالنار .

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾[1] .

تقول الآية الشريفة للإنسان أن نهاية كدحك ومسيرك الشاق هي لقاء الله تعالىٰ . كما تشير الآيات الشريفة لهذا :

﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴾[2] .

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴾[3] .

﴿ . . . إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾[4] .

فحيناً يكون سير الإنسان إلى الرحمة الإلهية فينتهي بالجنة التي هي مظهرها ، وحيناً يكون سيره إلى الغضب[5] والقهر الإلهي فينتهي بالنار التي هي مظهرها أيضاً .

طبقات أبواب جهنّم :

لجهنّم طبقات وأبواب متعددة . قال تعالىٰ :

---

(١) سورة الانشقاق ، الآية : ٦ .

(٢) سورة العلق ، الآية : ٨ .

(٣) سورة النجم ، الآية : ٤٢ .

(٤) سورة البقرة ، الآية : ١٥٦ .

(٥) بالطبع إن جهنم هي إحدىٰ مظاهر القهر والغضب الإلهي .

﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾[1] .

وفي سورة الزمر قال تعالىٰ :

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾[2] .

علىٰ هذا يدخل الذين يأكلون حق الناس باطلاً إلى جهنم من باب « حق الناس » الذي يظهر أنه الباب الأكثر ازدحاماً من أبواب جهنم ، حيث يدخل منه كل الذين يسخرون من الآخرين ويأكلون أموال الناس باطلاً ، ويشيعون الفاحشة في الذين آمنوا . وجاء في الروايات أن أمير المؤمنين (ع) كان يضع يداً فوق يدٍ حين يشير إلى طبقات جهنم وقد قال (ع) في دعاء كميل : « يتقلقل بين أطباقها » .

« **سقر** » :

تفيد الروايات أن جهنم عميقة جداً ، ولها سبع طبقات ، طبقتها الأولىٰ أعدت للناس العاديين والأخيرة والتي تُسمىٰ « سقر » أعمق الطبقات وهي مقر المنافقين .

يُذكر أن جبرائيل (ع) كان عند رسول الله (ص) فسمع صوتاً مهيباً ، فسأله الرسول الأكرم (ص) عنه . فأجاب جبرائيل (ع) أنه صوت ارتطام حجر بقعر جهنم كان قد ألقي قبل سبعين سنة ، وفي شرح هذه الرواية قال أستاذنا الكبير قائد الثورة العظيم (رض) : أن بعض الناس يطوون طريق جهنم في الدنيا ، وحين تأتي ساعة انتقالهم إلى الآخرة بعد عمر سبعين مثلاً ، يصلون إلى أعماق جهنم . أي أنّ الحجر الذي ارتطم بقعر جهنم وأطلق هذا الصوت المهيب هو قلب إنسان أصبح كالحجر ـ لارتكابه المعاصي ولغفلته عن الله تعالىٰ ـ قاسياً مظلماً فألقي في قعر جهنم .

---

(١) سورة الحجر ، الآية : ٤٤ .

(٢) سورة الزمر ، الآية : ٧١ .

درجات النار :

كما للجنة درجات فالنار كذلك لها درجات ، فتتناسب شدّة وضعف العذاب في جهنم مع كثرة وقلة ذنوب الإنسان وغفلته عن الله تعالىٰ . فجهنم واحدة إلّا أنّ درجاتها كثيرة ، وأبوابها هي الأبواب التي يفتحها الإنسان لنفسه في الدنيا بارتكاب المعاصي .

ويل :

تُبيّن الروايات أن لجهنم زنزانات اسمها « ويل » وهي حفر جهنم .

﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ۝ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴾[1] .

في تفسير هذه الآية الشريفة ، أشار الإمام الصادق (ع) إلىٰ وجود حفرة في جهنم اسمها « ويل » وهي مقر كاشفي عيوب الآخرين ولعبيد الدنيا والمال والذين يكنزون الذهب والفضة .

شدة عذاب النار :

خلاصة القول أنّ جهنم مكان شديد الخطورة ، والله العظيم لا تكون مظاهر رحمته وغضبه إلّا عظيمة كذلك . فمن الطبيعي أن تكون جهنم التي هي إحدىٰ مظاهر القهر الإلهي عظيمة ومهولة . لذلك نعت القرآن عذاب الله تعالى بالشدة .

﴿ ... إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾[2] .

﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾[3] .

وقد حذّر الله تعالىٰ الناس من آلام عذاب النار الشديد بالوعيد والوعيد وتبيين صفات النار وقساوة العذاب حتى يقي الناس أنفسهم النار .

وتعلمون أنّ إدراكنا للحقائق الأخروية كالجنة والنار والعذاب والنعيم أمر غير ممكن ، إنما يمكننا تصور لمحات منها فقط .

---

(١) سورة الهمزة ، الآيتان : ١ ـ ٢ .

(٢) سورة إبراهيم ، الآية : ٧ .

(٣) سورة الحجر ، الآية : ٥٠ .

درجات الجنة وطبقاتـها :

للجنة أيضاً كما للنار درجات وطبقات متفاوتة :

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا . . .﴾[1]

أبواب الجنة :

للجنـة أبواب كثيـرة يفتحها الإنسـان بأعمـالـه الصـالحـة . فكمـا أشـار النبي (ص) إلى أنّ في الجنة باب للشهداء لا يدخله غيرهم ، وبـاب آخـر للصابرين ابتغاء مرضـاة الله تعالىٰ على المصـائب الدنيـوية كعـوائل الشهـداء والفقـراء والمـرضىٰ والمعـوقين والمجـروحين ، والصـابـرين علىٰ العبــادات والعائذين بالله تعالىٰ حين يواجهون المعاصي فيسيطرون على أنفسهم ، أولئك قال عنهم تعالىٰ :

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2] .

فأجر الصابرين في الآخرة يكون كبيراً لدرجـة يتمنون لـو أنهم في الدنيـا قُرِّضوا بـالمقاريض كـل يوم وصبـروا على هذه المصيبـة سبعين عامـاً ابتغاءً لمضاعفة الجزاء .

مصاديق الصبر :

مصاديق الصبر كثيرة. . . منها حين تقع عين الرجل على امرأة أجنبية فيغض بصره قربة إلى الله تعالىٰ ، وعندما يسيطر على نفسه الأمّارة بالسوء فلا ينـزلق أمام حالة شهوانيـة ضاغـطة ، وحينما يحفظ لسـانه وسمعـه عن قول وسمـاع الغيبة ، ولا ينتابُه العُجب حينما يتسلّم منصبـاً رئاسيـاً ، ولا يطلب غيـر الرزق الحلال . . . ولطالما أدت أمثال هذه المصاديق إلىٰ طي طـريق مائـة عام من السلوك والتقرب إلى الله تعالىٰ خلال ليلة واحدة .

---

(١) سورة الزمر ، الآية : ٧٣ . (٢) سورة الزمر ، الآية : ١٠ .

الأبواب الأخرىٰ :

هناك باب خاص للعابدين ، يدخله يوم القيامة الذين كانوا يقضون الليل قياماً وقعوداً ، ابتهالاً ومناجاة .

باب الشيعة :

« باب الشيعة » من أبواب الجنة المزدحمة والذي يدخله الشيعة بواسطة شفاعة الرسول الأكرم (ص) . ويوجد باب خاص بالإمام الحسين (ع) كثير الازدحام . فمقيمي مجالس العزاء للإمام الحسين (ع) والذين لهم مع مظلومية الإمام أوجه شبه « مهما كان ضعيفاً » هؤلاء سينالون شفاعة الحسين (ع) ويدخلون الجنة من الباب الخاص به (ع) .

تذكرة :

لهذا عليكم أعزائي يا من تتوسلون بأهل البيت (ع) ، وخصوصاً سيد الشهداء (ع) ، وتقيمون له مجالس العزاء ، عليكم بقراءة زيارة « عاشوراء » و « وارث » وليكن في قلوبكم شوق لزيارة مرقده المطهر ، واتخذوا من حياته الشريفة مثالاً للاقتداء به .

باب التوبة :

« باب التوبة » من أبواب الجنة المزدحمة أيضاً . فإن ندِمَ الإنسان حقيقةً علىٰ ما ارتكبه من ذنوب مهما كانت كبيرة وكثيرة وعمل بشروط التوبة ، سيغفر الله له كلّ تلك الذنوب وسيدخل الجنة من باب التوبة :

﴿ . يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾[١] .

فكل المذنبين يذهبون إلى النار إلّا من تاب ورجع إلى ربه[٢] ، فيبدل الله

---

(١) سورة الزمر ، الآية : ٥٣ .

(٢) سورة الفرقان ، الآية : ٧٠ ﴿ إلّا من تاب وآمَنَ وَعمِل صالحاً فأولئك يُبَـدِّلُ الله سيئاتِهِم حسناتٍ ﴾ .

سيئاته حسنات ، وتبيض صحيفة أعماله السوداء ، ويؤتى كتابه بيمينه ، ويكون مصيره السعادة والجنة ، فإن الله تعالىٰ يحب التوابين .

إرجع إرجع ، أياً ما تكون إرجع
كافراً كنت ، أم مجوسياً ، أم وثنياً إرجع
فليس في حضرتنا مكاناً لليأس . . . حتى لو فسخت توبتك مائة مرة إرجع .

الدرس العشرون

لمحة عن الجنة والنار

الجنة مظهر من مظاهر رحمة الله تعالى، وجهنم مظهرُ قهره عزّ وجلّ. فتكون الجنة نعمة عظيمة لا يمكن وصفها، ولا تحيط بها عقولنا، لأن الرحمة الإلهية مطلقة وغير محدودة فيكون مظهرها مطلقاً أيضاً.

وعذاب جهنم من ناحية كونه مظهراً للقهر الإلهي عظيم لا يمكن إدراكه. وكما أشرنا سابقاً فإن لجهنم طبقات ودرجات مختلفة، وكل إنسان يستقر في الطبقة والدرجة التي تتناسب مع حاله وأعماله، فإنّ شدّة العذاب تتناسب مع أعمال وأقوال ونيّات الإنسان في الدنيا.

احتراق الجسم والروح:

يحدثنا القرآن الكريم أن نار جهنم لا تحرق جلد الإنسان فقط بل تفتت العظام وتحرق الجسم والروح معاً:

﴿كُلَّمَا نَضِجَت جُلُودهُم بَدَّلْنَاها جُلُوداً غيرها ...﴾[1].

ونقرأ في سورة الهمزة عن سراية نار جهنم إلى العظام:

﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ * ٱلَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ * كلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي ٱلحُطَمَةِ * وما أدراكَ ما ٱلحُطَمَةِ * نَارُ ٱللهِ ٱلمُوقَدَةُ * ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلأَفْئِدَةِ ﴾[2].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٦. (٢) سورة الهمزة، الآيات: ١ ـ ٧.

فقد جاء في معنىٰ « الحطمة » الشيء الذي يحطم العظام فيكون معنىٰ عبارة ﴿ . . . لينبذن في الحطمة﴾ أنه يُلقىٰ في النار التي تحطم العظام وتطحنها .

إحاطة النار بأهل جهنم :

تكون النيران مطبقة على أهل جهنم فلا مخرج لهم منها ولا منجىٰ . وهو المعنىٰ الذي أشارت إليه هذه الآية الشريفة :

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾[1] .

وبعبارة أخرىٰ ، فإن نار جهنم تحيط بأهلها وكأنهم في قِدْرٍ كله نـار وهم يتقلقلون فيها .

« **يتقلقل بين أطباقها** »[2] .

أغلال وسلاسل النار :

الإنسان الذي ابتعد عن الله تعالىٰ ، وبالنتيجة عن الجنة ، بما ارتكبه من أعمال سيئة وبتعلقه بالدنيا ، سيغل يوم القيامة وسيجعلوه في السلاسل ، وذلك تنفيذاً للأمر الإلهي :

﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾[3] .

أي أن الغرور والحسد والتكبر والأنانية تتبدل إلى أغلال وسلاسل .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾[4] .

طعام أهل النار:

عبّر القرآن الكريم في سورة الواقعة عن طعام أهل النار بـ « غسلين » .

---

(١) سورة الهمزة ، الأيتان : ٨ ـ ٩ .
(٢) مقطع من دعاء كميل ،
(٣) سورة الحاقة ، الآيات : ٣٠ ـ ٣٢ .
(٤) سورة يس ، الآية : ٨ .

﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴾[1] .

كذلك نقرأ في سورة الواقعة :

﴿ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾[2] .

فأهل النار ولشدة عطشهم سيشربون كالإبل التي أصابها الهُيام ـ بضم الهاء ـ من ماء الحميم الذي يذيب أجسادهم . وبعد الذوبان يُحيوْنَ من جديد ليعذبوا مرة أخرىٰ وهكذا . عطشهم وجوعهم ناشئان عن عطشهم وجوعهم للشهوة والرئاسة والمال وملاحقة عيوب الآخرين وإهانتهم . . . الخ فالمصّرون علىٰ الذنوب في الدنيا يبتلون في جهنم بمرض الجوع والعطش ويكون « الحميم » و« الزّقوم » هو ما هياؤه لأنفسهم من قبل ، إلا أن وطأة جوعهم وعطشهم لا تَخُفْ بل تشتد أكثر .

كانت هذه بعض اللمحات البسيطة عن النار ، ويمكن التعرف أكثر علىٰ أوصاف جهنم وحالات أهلها من خلال التأمل والتدبر العميقين في الآيات القرآنية وخصوصاً ما في سورة الواقعة المباركة والسور التي تليها إلى آخر القرآن الكريم ، لعلّ هذا ما يساعد علىٰ تليين قلوبنا القاسية .

فكلّما صدأت وقست قلوبنا ، إلتجأنا مباشرة إلى القرآن نتلوه بحزن ونفكر بعمق في إحدىٰ سور القرآن الأخيرة. نكرر ذلك حتى تلين قلوبنا وينجلي عنها الصدأ . فهذا هو الطريق الوحيد لتطهير القلوب وإزالة الادران عنها .

لمحة عن الجنة :

لا يمكن لنا إدراك حقيقة الجنة أو حتىٰ تصورها ، لكن نستطيع الحصول على رشحات قليلة من خلال الآيات القرآنية . . .

---

(١) سورة الحاقة ، الآية : ٣٦ يقصد « بالغسلين » الدم والقيح .

(٢) سورة الواقعة ، الآيات : ٥٢ ـ ٥٦ .

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[1]

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾[2] .

أنواع الجنة :

عدد القرآن في الآية الشريفة ثلاثة أنواع للجنة :

١ ـ الجنة

٢ ـ جنة عدن

٣ ـ رضوان الله .

ليست الأنواع الثلاثة جنات متفاوتة بل مراتب مختلفة لجنة واحدة ، واختلاف المراتب يتناسب مع اختلاف درجات أهل الجنة وشدة وضعف إيمانهم وتوحيدهم .

لذائذ الجنة :

لذائذ الجنة نوعان : روحية وجسمية .

إحدىٰ ميّزات نعيم الجنة أنّ الإنسان لا يملّ ولا يتعب منها . وقد حدثنا القرآن الكريم عن اللّذتين ، فذكر :

أ ـ : اللذائذ الجسمية : كالفواكه المختلفة واللحوم والشراب . . . .

ب : اللذائذ المعنوية :

﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾[3] .

وهذه اللذائذ عبارة عن : عدم وجود إثم في الجنة ، إذْ لا يخاطب الإنسان

---

(١) سورة السجدة ، الآية : ١٧ .

(٢) سورة التوبة ، الآية : ٧٢ .

(٣) سورة الواقعة ، الآيتان : ٢٥ ـ ٢٦ .

صاحبه بما لا فائدة فيه . . . بل سلام واحترام متبادل . كما تتجلىٰ الوحدة بين الناس حيث لا مجال للإختلاف والتفرقة .

ذلك العالم ليس غير الحياة والبقاء
فليس ذلك المركب من الأضداد
فالفناء سببه التضاد بين الأضداد
فلو لم يكن التضاد لم يكن إلاّ البقاء
انعدمت الأضداد في الجنة
فلا شمس فيها ولا زمهرير[١] .

بما أن الدنيا عالم الأضداد وموطن الكثرة فإن فيها النقص والفساد والاختلاف والتضاد والموت. . . أما العالم الروحي فلا مكان فيه للفساد والمكر والتضاد والموت ، فكله بقاء ونور وتجلي لوحدة الحق تعالى[٢] .

سلام من الرّب .

وجود كل ما يشتهيه الإنسان من فواكه في متناول اليد والاتكاء على الأرائك هو من اللذائذ الجسمانية ، لكن الأفضل منها هو اللذائذ الروحية ، وهو السلام منه تعالىٰ ، والذي تنقله ملائكة الرحمة الإلهية من مقام القدس الرباني إلى العباد الطائفين في الجنة . وهو من ألذ اللذائذ ، وهذه اللذّة غير لذّة رؤية حور العين وأكل الفاكهة ومشاهدة رياض الجنة .

﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾[٣] .

---

(١) مولوي .
(٢) لأن طبع وجوهر الروح الإنسانية من عالم الرب فهي تريد بفطرتها الوحدة والرجوع إلى عالم الروح والجنة ، لكن الدنيا التي هي عالم الأضداد والفساد والاختلاف ، خدعت ومنعت الإنسان عن التحليق بروحه إلى موطنها الأصلي .
(٣) سورة يس ، الآيات : ٥٥ ـ ٥٨ .

مشاهدة أنوار الجمال الإلهي :

من اللذائذ العظيمة الأخرىٰ ، مشاهدة تجليات وإشراقات أنوار الجلال والجمال الإلهي ، وهي نفسها المقدمات التي وصل إليها الأئمة الطاهرين (ع) في الدنيا ، وهو ما يظهر بوضوح في مناجاتهم (ع) :

« ولا تحرمني النظر إلى وجهك »[1].

« والحقني بنور عزّك الأبهج فأكون لك عارفاً»[2].

« وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة وتصير أرواحنا معلقة بعز قدسك »[3] .

كتاب من الله :

تخبر الروايات عن صدور كتاب من الحق تعالىٰ لعبده المؤمن في الجنة تبدأ بالعبارة التالية :

« من الحي الذي لا يموت إلى الحي الذي لا يموت »[4] .

إن صدور كتاب من جانب العزّ الربوبي إلى العبد يتضمن سلامُه تعالىٰ ويبدأ بالجملة المذكورة دليل علىٰ المقام العالي واللذّة التي لا تُتَصور فوقها لذّة .

شأن أهل الجنة :

تخبرنا الآية الشريفة : ﴿ إنّ أصحاب الجنة اليوم في شُغُلٍ . . . ﴾ بمسألة مهمة أخرىٰ وهي أنّ كل شخص من أصحاب الجنة متنعم بما يتناسب مع شأنه ومقامه في الدنيا ، فمن كانت همته وأعماله الصالحة ومقاماته المعنوية

---

(١) المناجات الشعبانية .

(٢) المناجات الشعبانية .

(٣) المناجات الشعبانية .

(٤) بحار الأنوار .

أسمىٰ ـ كلما كان ما يطلبه ويدعُوه أسمىٰ وبالتالي ـ فسيكون مقامه وشأنه في الجنة أعظم .

حال أهل الجنة :

هناك عباد لا يتعدىٰ شأنهم التمتع والتلذذ بنعم الجنة المادية ، كالأنهار والأشجار والقصور وحور العين . . . ، أحياناً يأتيهم سلام وخطاب من الله تعالى ، وهذا المقام شأن عامة الناس الذين دخلوا الجنة ، وهو شأن عظيم جداً يحتاج إلى تَصوُّر لذائذه ذوق ومعرفة . . . ومع هذا فهو مقام الجنة الأدنىٰ .

الانغمار في عالم الوحدة :

الفئة الثانية من أهل الجنة لها مقام أعلىٰ ، فأولئك شأنهم الانغمار في عالم الوحدة ، وعملهم التسبيح والتهليل والتحميد للذّات الربوبية .

﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾[1]

تقول الروايات إنهم غارقون في عالم الوحدة لدرجة أنهم لا يلتفتون إلى حور العين والقصور والنعم المادية . والفئة الثالثة من أهل الجنة هم المستأنسون بالرسول (ص) والأئمة الطاهرين (ع) ، فلذّتهم في مجالسة الرسول (ص) وأهل بيته (ع) « وربما هذه الجنة هي جنة عدن » .

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾[2] .

حقاً إن المؤانسة مع الرسول (ص) والأئمة الأطهار (ع) نعمة عظمى .

رضوان الله :

أما الفئة الأخرىٰ من أهل الجنة ، ومقامها أعلىٰ من الفئة الثالثة . فأولئك

(١) سورة فاطر ، الآية : ٣٤ .
(٢) سورة النساء ، الآية : ٦٩ .

في جوار الله ورضوانه ، فهم عند الله يكلمهم ، وينالون سعة وجودية بنظر الله تعالىٰ إليهم .

وهم مسروررون وفرحون لعناية ولطف الحق تعالىٰ بهم .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[1] .

عبارة ﴿ إلى ربها ﴾ جار ومجرور يفيد تقدمها الحصر ، فيعني أن هناك فئة لا عمل لها غير مشاهدة جمال الحق جل وعلا . فهم دائمي النظر إلى وجه الله تعالىٰ ولذتهم في الجنة مشاهدة وجهه عزّ وجلّ .

فعندما نقول بأن الشهيد ينظر إلى وجه الله ، فهم مصاديق للآية الشريفة :

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۝ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾[2] .

نقل في رواية المعراج أن رسول الله (ص) سأل ربه جلّ وعلا عن فئة من الناس ، فجاءه الخطاب : إنهم « المسجونون » ثم تحدث عنهم بقوله تعالىٰ :

« الذين سجنوا ألسنتهم من فضول الكلام وبطونهم من فضول الطعام »

إنهم تاركوا الشهوات في الدنيا ، الذين قلّ كلامهم فتركوا منه ما لا فائدة دنيوية أو أخروية تُرجىٰ منه ، ولم يألفوا مجالس البطالين ، ولم يكثروا من النوم والأكل بل انشغلوا بالعبادة وأفنوا أعمارهم في طلب العلم والعمل ، بأحكام الشارع المقدس ، ولم يرتكبوا المكروهات ، واقتصروا على ما يسد حاجتهم فلا إفراط ولا تفريط .

تذكرة :

أعزائي عليكم بتلاوة سور القرآن الأخيرة التي تصف الجنة والنار ، فهذه السور والآيات تحدث عند الإنسان حالة من الخوف والرجاء ، وهي حالة لا بد

---

(١) سورة القيامة ، الآيتان : ٢٢ ـ ٢٣ . (٢) سورة الفجر ، الآيات : ٢٧ ـ ٣٠ .

للإنسان أن يحافظ عليها في سيره وسلوكه الإلهي ، فيسيء الظن بنفسه ويستشعر الخوف من الذنوب التي ارتكبها أو التي قد يرتكبها في المستقبل ، ومن ناحية أخرىٰ أن يضع كل أمله في رحمة الله تعالىٰ الواسعة . فعليه أن يعلم أنه مهما كبرت وكثرت ذنوبه فإن رحمة الله تعالىٰ أكبر وأعظم .

حوار أهل الجنة وأهل النار :

نعلم من القرآن أن أهل الجنة وأهل النار يرىٰ كل منهما الآخر ويتحاور معه . والفئتان تحاوران الله تعالىٰ أيضاً ، فأهل الجنة يتلذذون بحديثهم مع الحق تعالىٰ ، أما أهل النار فيتعرضون للقهر الإلهي عندما يتكلمون مع الله ، فحين يطلبون الخروج من النار يأتيهم الخطاب :

﴿ . . . ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾[1] .

والملائكة تحدث أهل الجنة بمحبة واحترام ، بينما تحدث أهل النار بغضب واحتقار ، وهو ما يؤذيهم كثيراً ، فأهل النار يتألمون بشدة عندما يتعرضون لاستهزاء الله والملائكة وأهل الجنة . وإنه لعذاب كبير أن يتعرض الإنسان للاستهزاء يوم القيامة . قال تعالىٰ في سورة الأعراف :

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[2] .

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[3] .

---

(١) سورة المؤمنون ، الآيتان : ١٠٧ ـ ١٠٨
﴿ ربَّنا أخرجنا منها فإن عُدنا فإنَّا ظالمون ، قالَ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية : ٤٤ .

(٣) سورة الأعراف ، الآية : ٥٠ .

فيؤجج هذا الجواب نار الحسرة في قلوبهم .

وينقل القرآن الكريم محاورة أخرىٰ :

﴿ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٤١ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ﴾[1] .

ثم يقول القرآن :

إن هؤلاء سوف لن تنفعهم شفاعة الشافعين في ذلك اليوم[2] .

انتهت بعون الله

---

(١) سورة المدثر ، الآيات : ٤٠ ـ ٤٥ .

(٢) ﴿ فما تنفعهم شفاعةُ الشافعين ﴾ سورة المدثر ، الآية : ٤٨ .

الفهرس

الدرس الأول المقدمة ٥
الدرس الثاني سبب التكذيب بالمعاد ١٥
الدرس الثالث الموت . . انتقال ٢٣
الدرس الرابع اثبات أصل المعاد ٢٩
الدرس الخامس المعاد الجسماني ٣٥
الدرس السادس شبهة الأكل والمأكول ٤١
الدرس السابع كيف يحشر الانسان يوم القيامة ٤٧
الدرس الثامن المعنى الآخر لتجسم الأعمال ٥٣
الدرس التاسع دفع سبهة العمل والثواب ٥٩
الدرس العاشر منازل المعاد ٦٥
الدرس الحادي عشر دفع شبهة ٧١
الدرس الثاني عشر عالم البرزخ ٧٥
الدرس الثالث عشر النفخ في الصور ٨٣
الدرس الرابع عشر الكوثر ٨٩
الدرس الخامس عشر الحساب والكتاب ٩٥
الدرس السادس عشر الميزان في يوم القيامة ١٠١
الدرس السابع عشر شهادة الشهود وحال العباد ١٠٦
كيفية شهادة أئمة الدين (ع) ١٠٩
الدرس الثامن عشر الشفاعة ١١٣
الدرس التاسع عشر نهاية سير الإنسان ١١٩
الدرس العشرون لمحة عن الجنة والنار ١٢٥